مجموعة قصصية

مجلس الجن

مبارك العريفان

العمل الحائز على المركز الثالث في مسابقة الكاتب والروائي عبدالوهاب السيد الرفاعي للإبداع الأدبي

فانتازيا للنشر والتوزيع
FANTASIA FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTION

قصص من وحي الخيال..

بعضها قد حدث فعلاً، لكن لن أخبركَ أيهم الحقيقي وأيهم الخيال، كي تعيش اللذة بين الغطاء الأسود وقمرها المنير في ليلة خالية من الضوضاء، تحمل بين طياتها مفاجآت أرجو أن يتقبَّلها قلبكَ قبولاً حسناً.

لكن!

إذا شعرتَ باليد التي تكاد أن تصل إلى قدمكَ التي خرجت من لحافكَ باحثة عن نسمات الهواء الباردة، فاعلمْ أن لا دخلَ لي بها، فهي فعلاً موجودة تحت سريركَ تتحرَّى اللحظة المناسبة!

للتذكير: فإنَّ الذكرى تنفعُ المؤمنين (وإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَانِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هوَ السَمِيعٌ العَلِيمٌ). سورة فصلت، الآية (٣٦)

ملاحظة: المعتقدات والمبادئ والآراء خاصة بشخصيات القصص حتى تكتمل أركانها، تمّ ذكرها وإضافتها لتوضيح مجرى الأحداث.

المؤلف

إهداء

إهدائي هذهِ المرة لكَ أنتَ يا مَن شرَّفتِني بحمل كتابي بين كفَّيكَ، أولاً شكراً لكَ لظنِّك الحسن بي، ثانياً شكراً لكَ من القلب على وقتكَ الثمين، أرجو لكَ قراءة ممتعة حالمة بين سطور كُتبث من دماء ضحايا الرعب، لا تنسَ البسملة.

المؤلف

أخوكم/ مبارك العريفان

المقدمة

صرخَ (سعود) قائلاً: «لا تنسَ السكين الكبيرة». ابتسمَ «خالد» الذي كان يحمل بين يديه صندوقاً من الفلّين تنبعث منه رائحة جاذبة لجمهور القطط التي التمَّت مقابل العرض المسرحي في منزل خالد.

نزلَ «سعود» من سيارته ذات الدفع الرباعي، ونزل كلٌّ من «سالم» و «يوسف» لترتيب الأكوام المتراصّة من أكياس السوبر ماركت في مخزن السيارة الخلفي، ومن ثم إحصاء الموجودات والتأكد من تأمين كافة المستلزمات المطلوبة ومنها: قوارير الماء التي تكفي لمدة أربعة أيام، وأنواع الحلويات ورقائق البطاطس المقرمشة، الخبز وعلبة الجبن السائلة، القهوة والشاي، وختاماً قِدر كبير يحتوي على الأكلة الكويتية الشهيرة «مكبوس دجاج».

تقدّم خالد مُندّى الجبين بسبب وزن الصندوق الفلّيني الذي يحتوي على مكعّبات الثلج، التي اختبأ تحتها الروبيان وسمك مقطع بأحجام صغيرة والحبّار، ومن فوقهم كيس مغلق بإحكام يحتوي على عجين الطحين، بسبب حب سمكة السبيطي المشهورة والمرغوبة من المجتمع الكويتي لهذه العجينة، لكل نوع سمك هناك طُعم يحرك جميع غرائزها.

(سعود) مخاطباً خالد: أحضر السكين ولوح الشواء الكهربائي، ولا تنسَ صندوق حفظ الهواتف من الماء. (خالد) قائلاً: سأضع الصندوق الذي كسرَ ظهري أولاً، ثم أُحضر الآخر الذي يحتوي كل ما ذكرتَ، أعاننا الله على حرصكَ يا سعود، اترُكْ لنفسكَ مجالاً لكي تعيش

حياتكَ بشكل طبيعي، وافصِل ما بين حياتكَ العسكرية والمدنية.

(سعود): سوفَ نعيشُ الحياةَ المدنية بكل تفاصيلها الجميلة، لكنَّ عليّ أن أتأكد من جميع الاحتياجات، لكي نمضي مع رحيل الشمس في رحلتنا البحرية، في هذا الليل الجميل الهادئ الخالي من التقلبات الجوية حسب النشرة الجوية المتوقعة للأيام القادمة، بالقرب من مسقط رأسي ومحبوبتي «جزيرة فيلكا»، لعلنا في نهاية الرحلة نعرِّج على بيت والدي ونبيتُ هناك حتى رحيل شمس اليوم التالي، فنكمل رحلتنا.

(يوسف) قائلاً: لا يهمني هذا وذاك، كل ما يشغل بالي في الوقت الحالي هو الوعد الذي قطعهُ سالم لنا متحدياً الجميع ليُخرِج سمكة الشماهي(1) من قاع البحر إلى لوح الشواء مباشرة، أريد أن أتذوق لذة السمك الطازج مع عيدان إكليل الجبل وشرائح الليمون. (سالَ لعاب الحاضرين مع نظرات البلاهة في تخيُّل الحدث).

(خالد) قائلاً: «لا أظن أن يأتي الخير من سالم، فخيوطه لا تجذب إلا سمك الجِم(2)». ضحكَ الجميع إلَّا سالم الذي قطّب حاجبيه وعلا العبوس وجهه.

انطلقوا إلى وجهتهم، ومقابلهم الشمس ترسل آخر درجات نورها مودِّعة السماء لتُسلِّم المكان إلى القمر المنير، إلى أن وصلوا إلى بوابة ميناء القوارب في منطقة «السالمية» البحرية. ركنَ سعود سيارته مقابل قارب بحجم ٣٤ قدماً موسوم باسم «دِيار الفيلكاوية»، جلسَ بكل شموخ على عربته ذات العجلات.. وضع الجميع هواتفهم داخل

صندوق ضد الماء، ثم نزل خالد من السيارة ليتسلق السلم الخلفي بجانب المحركات المرتفعة التي نُقِش عليها رقم ٢٥٠ ذات العلامة التجارية «ياماها»، وبدأ أصدقاؤه بنقل المستلزمات من مخزن السيارة إلى يد خالد ليتمَّ ترتيبها في مخازن القارب وقمرة القيادة التي فُتح بابها ليخرج الشاب (شعبان) قائلاً: أهلاً وسهلاً بكم، وبدأ بمعاونتهم في الترتيبات.

«شعبان» شاب مصري بشوش الوجه جميل المحيَّا، يعمل سائقاً للقارب والمسؤول عن صيانته، تمَّ تعيينه لكي يستخدم القارب في صيد السمك في الليل، ليبيعهُ فجراً في سوق الصيادين والفنادق الفخمة ويتقاسم الرَّبع مع مالك القارب «سعود».

نهضَ سعود لتعديل سيارته، وذلك لتركيب قاعدة عربة القارب بذيل السيارة الحديدي، وبدأ بالتحرك إلى المنحدر الخرساني الذي يمتد من الساحل إلى قاع الماء، وذلك لتسهيل نزول القارب دون أضرار. صعدت المجموعة إلى ظهر القارب واستعانَ سعود بالمرايا الجانبية لتنزيل عربة القارب إلى الماء.

فكَّ «شعبان» قفل الأمان فانفصلَ القارب عن عربته طافياً بشموخ في مياه جون الكويت، تقدّم سعود وركنَ العربة أولاً، ثم فكّها من السيارة ليركنها بجانب العربة، وبمعاونة أصدقائه تسلّق القارب مع القليل من البلل الذي لابدّ منه.

بدأ شعبان بتنزيل المحرِّكيْن إلى الماء من خلال قمرة القيادة، ثمَّ قام بتشغيلهما.. وهنا توجَّس (سعود) قائلاً: لماذا لا تعمل المحركات؟،

(شعبان): لقد تعطلت منذ أسبوع، بالمقابل قامَ الفنّي بفحصها، وحسب إفادته فإنَّ قطع الغيار المطلوبة سوف يتم طلبها من خارج الكويت، وفي الوقت الحالي سيتم إصلاح الضرر لتعمل من دون أن نجهدها.

(سالم) قائلاً: والآن تخبرنا بذلك؟، (يوسف) بغضب: كان من اللازم إبلاغنا قبل أن نُنزل القارب في الماء، فأخي لديه قارب جاهز للإبحار!

(شعبان): لا عليكم! لقد أبحرتُ في القارب ثلاث مرات بعد إصلاحه، وما دام شعبان معكم.. لا تدعوا القلق يتمكّن منكم. (سعود): بل أنتَ القلق بحد ذاته. وضعَ سالم وشعبان أيديهما بين الشحم والأسلاك، وخالد في قمرة القيادة في انتظار الإشارة، وما هي إلّا دقائق حتى قال (سالم): الآن. (خالد) بهمس: بسم الله.. عصرت المحركات نفسها وكأنَّها عجوز قد اختنقت بلعابها، ثم بدأ «المولِّد» يُغرِّد طرباً، لقد تمَّ إنجاز المهمة بنجاح، قالها (سعود) الذي غُرست في صدره آلاف الأسهم المتطايرة من نظرات البقية!

اتَّخذ الجميع أماكنهم لكي يستقر القارب وتتوزع الأحمال على ظهره، سمّى شعبان بالله، ومن ثم شقَّ وجه القمر المرسوم على لوحة الماء، وهنا يجول الجميع بين ذكرياتهم وكأنَّ القمر والماء والهدوء إنْ وُجِدت تستدعي معها صندوق الألم، لتُغذي ذكرياتنا التي سعينا إلى أن نتناساها، لكن هيهات.. الإنسان يبحث عن الألم في لحظات الهدوء.

مرَّ من الوقت أربعون دقيقة وها هي «جزيرة مَسكان»(3) قد بانَ

ساحلها ومن خلفها «جزيرة فيلكا»، حسب الإحداثيات المخزنة في ذاكرة «شعبان»، تمَّ إرساء القارب ما بين الجزيرتين ليتحوّل القارب إلى خلية نحل في تجهيز المعدات والخيوط الخاصة بالصيد وذلك قبل أن تنقلب الحالة من أعلى مد إلى الدخول في مرحلة الجزر، وهذا أفضل وقت لالتقاط أكبر كمية من الأسماك.

في كل ركن من أركان القارب هناك خيط من النايلون ينتهي بخطّاف يخفيه الطُعم المرصوص، وهناك كتلة الرصاص التي تُعتبر الوزن الذي سوف يغوص بهذا الخيط إلى العمق المطلوب، وساد هنا الهدوء بفعل منظر البدر الباسم وتلاطم الماء بحنان على سطح القارب.

(يوسف): لقد جهَّزتُ الشوَّاية الكهربائية التي تنتظر سمكة سالم. (سالم): هناك مجلس شورى حول الطُعم وأظنُّ أنَّهم على وشك اختيار الضحية التي سوف تحلّ ضيفة على قاربنا قريباً. (سعود): خالد، أين وضعتَ صندوق حفظ الهواتف؟، سكتَ (خالد) لدقائق ثم ضرب مقدمة رأسه: لقد نسيتُه في السيارة.. أعتذر بشدة عن هذا الخطأ!. احمرّت وجوه الحاضرين غضباً. (سعود): وأنتَ يا شعبان، أين هاتفك؟، (شعبان): «لا يوجد لديّ رصيد لذا وضعتُه في المرسى عند صديقي ليشحن البطارية، وأمّا الرصيد فأرجأتهُ إلى حين عودتي». هاجَ الجميع غضباً وكادوا أن يرموا خالد في قاع البحر.. لكنَّهم هدؤوا بعد فترة بسيطة.

بعد أن استقرت أنفاس (سعود) قال: في هذه الأجواء الجميلة أتعلمون ما الذي ينقصنا؟، ما رأيكم أن نقتل الوقت مع أغرب حدث

حصل في حياتكم؟

بعد صمتٍ لدقائق، استحسنَ الجميع الفكرة لتكون الرحلة صيداً وسمراً. (شعبان): هل تسمحون لي بالمشاركة؟، (خالد): بالتأكيد ولتكن أنتَ صاحب القصة الأولى.

---

(1) سمكة الشماهي: تعتبر من الأسماك الغالية، ويتراوح سعرها في المزادات العلنية بين 200 دينار و500 دينار، ليس بسبب طعمها اللذيذ، بل إنَّ هناك قطعة لحم وسط بطنها يتم بيعها للصين بمبلغ عالٍ، وهناك يتم بيعه مرة أخرى بمبلغ أعلى بكثير بسبب استخدامها في المجال الطبي وبالتحديد في الجراحة.

(2) سمكة الجِم: سمكة غير مرغوبة على المائدة الكويتية وأكثر ما يتم صيدها في جون الكويت، ويتم إرجاعها إلى البحر مرة أخرى، حول رأسها شوك قد يؤدي إلى التسمم عندما يُغرس في جلد الإنسان، مع العلم بأنّها السمكة الأولى على الموائد الأمريكية والمطاعم الفاخرة وشطائر مطاعم الوجبات السريعة.

(3) جزيرة مسكان: جزيرة كويتية تبعد عن جزيرة فيلكا ما يقارب 3 كيلومتر، غير مأهولة بالسكان، هناك عائلة واحدة كانت تستفيد من ساحلها في صيد السمك، على أن يهتموا بالمنارة التي كانت تُرشد السفن وتبعدهم عن الصخور الملاصقة لها، وذلك تحت توجيهات أمير الكويت آنذاك. في عصر الإغريق كان اسمها «موشن» حسب ما ذكرها الرحالة جيمس بكنغهام في عام 1816 م، وتم العثور في باطنها على آثار تعود إلى العصور الإسلامية.

القصة الأولى يرويها

«شعبان»

(ظلمات السويس)

مِن قدح اللبن ماتَ المُرتوي والساقي..

صرخات استنجاد من «فتاة» بصوت يلهث خلف الحياة، وممّا زاد من رهبة صراخها هو فراغ محيطها، صرخات عميقة يتبعها صداها في جميع اتجاهاتها الأربعة، على أمل أن يصل من يُنجدها من براثن الألم. لقد كانت هذه ليلتي الأولى وسط الخلاء بين السماء وثراها.

******

لقد أتممتُ عامي التاسع عشر الذي جمعَ لي فرحتين، فرحة يوم ميلادي وفرحة تخرجي من المرحلة المتوسطة، فقد كان لضيق المعيشة الدور الرئيسي في تغيير مجرى حياتي، حيث إنَّني أعمل وأدرس في نفس الوقت، وذلك ما سبَّب تراجعاً في مستوى دراستي، فمن المفترض أن أكون حسب الترتيب الزمني الصحيح في أول سنة من المرحلة الجامعية.

جلسَ «والدي» معي بعد الانتهاء من العشاء للنظر في مستقبلي ولممارسة الأبوة الناصحة لتقويم مسيرة حياتي، (والدي): أخبِرْني يا بنيَّ ما هي مخططاتك بعد التخرج؟، (شعبان): لقد أخبرتُكَ مسبقاً يا والدي، أحلم أن يكون لديَّ دكان صغير لبيع الملابس في «بور سعيد»، فهناك تجد الذهب في كل شيء، فُرص تأتيكَ من حيث لا

تحتسب، خصوصاً من التُجار العابرين في الميناء، بشرط أن يكون لديكَ إقامة دائمة، ولو كانت على شكل دكان لبيع الملابس.

(والدي): «هذا كلام جميل! يعجبني حماسكَ، أضعُ يدي في يدكَ لتحقيق أحلامكَ بقدر استطاعتي، لكن قبل أن تخطط لمستقبلكَ يجب أن تزيح جميع المسؤوليات التي تقع على عاتقكَ». «قطّب شعبان حاجبيه»، أردفَ (والدي): وأحد هذه المسؤوليات هي الخدمة العسكرية الواجبة عليكَ، يجب أن تنهيها لكي تترك المجال لعقلكَ ليُبحر في محيط مستقبلكَ دون عوائق.

لم أترك كلام والدي يمر مرور الكرام عبر أُذنيّ، بل حملته على محمل الجد، حيث إنَّني في اليوم التالي مباشرة ذهبتُ للتقدم إلى خدمة الجيش الواجبة على كل شاب مصري، وهذا الأمر له من الإيجابيات الشيء العظيم، وأولها خدمةُ بلدي ثم صقلُ رجولتي لأتحمل مفاجآت الزمن.

انتهيتُ من الفحوصات الطبية وتمّ استلام ورقة يتم توزيعها على جميع المتقدمين الذي ينظرون إلى العسكري نظرة المكسور المُودِّع لملذات الدنيا، وكأنَّه قد وجب عليه دخول الجحيم من أوسع أبوابه، وقد حدث بالفعل، فأنا الآن وسط الجحيم حيث إنّني أقف وسط الأرض القاحلة، والشمس قد أوقدت نيراناً في جمجمتي، وها هو مخّي قد بدأ ينضج وسط غليان الماء المحيط به بلا رحمة.

نقفُ كالبنيان المرصوص من دون حركة أو كلام، وإن لدَغَنا العقرب الأحمر في هذه الصحراء القاحلة... شفاه متشققة، جباه متعرّقة،

جلد خشن فقدَ الطبقة الدهنية بسبب الجفاف. وما زاد من الألم البدني هو حديث النفس الذي لا يناجيكَ إلّا بالمكاره، لماذا دخلتُ الجيش، وقد كنتُ في ملذات الدنيا أسرح وأمرح؟ مالي ولهذا الجحيم؟. وأثناء المناقشة المحتدمة مع الذات تسمع صوت خشب يرتطم على الأرض، بل هو أحد الزملاء الذي لم يتحمّل ضربات سياط الشمس على جلده العاري، فهوى على الأرض جثة هامدة.

يأتي الدكتور الذي يجلس في الظلّ ويكشف عليه، وبالتالي يأمر بنقله على وجه السرعة إلى المستشفى لتلقّي العلاج اللازم، هل تعتقد أنَّه نجا؟، بل إنَّ مصيره السجن لمدة أسبوعين، وخطيئته هي عدم تحمُّل جسده قسوة الصحراء!

في هذه الأثناء تنسى كل ما يجعل منكَ بشراً ذا حقوق في معيشة رغيدة، بل عليكَ أن تكون كياناً مطيعاً للأوامر فقط، ومَن لا يمتثل لها ستكون عواقبه وخيمة مستمرة إلى أن تتلاشى إنسانيته بالكامل.

انقضت فترة التدريبات المعتادة التي تقارب مدتها خمسة وأربعين يوماً، وآن الأوان لتطبيقها على أرض الواقع. لكن بسبب خطأ في فرز الأسماء، لم يُقدِّر الله لي أن أكون من ضمن المفروزين للرحيل من هذا الجحيم.

لقد امتدت إقامتي في معسكر التدريبات تسعين يوماً، وأنا أتجرّع المر وألزم الصمت الذي لا أملك سواه، إلى أن جاء الفرج عندما سمعتُ اسمي يصدح في الأرجاء: (عسكري شعبان استعدّ للرحيل إلى معسكر محافظة الفيوم). لا أعلم لماذا شعرتُ بأنَّ هناك مَن

يدعوني إلى الخروج من قيعان النار لأنتقل إلى نعيم الجِنان.

وصلت الحافلة إلى مشارف معسكر فرقة الفيوم، ونزل الجميع محمَّلين بالحقائب المعلقة على الأكتاف، ومن فوقهم لُف لِحاف النوم بطريقة اسطوانية، ومع هذه الأوزان تمَّ الاصطفاف كأسنان المِشط إلى جانب بعضنا بعضاً في انتظار الضابط الذي سوف يوزعنا على العنابر ويوزع علينا المهمات. لكن في هذا الوقت كان الضابط منشغلاً بكامل انتباهه بأمور أهم من البشر الذين ينتظرون أوامره، فإن «فريق الزمالِك» على وشك أن يُحرز هدفَ الانتصار على الشاشة المعلقة في مكتبه.

انتهت المباراة وخرج من مكتبه بكل فخامة وشموخ متجهاً إلينا، أخذ قائمة الأسماء وبدأ بتوزيع المهام على العساكر الجدد، وكذلك توزيعهم في المهاجع المخصصة لهم، لكن..

لم يكن شعبان من ضمنهم! «لقد ذهب الجميع وأنا في مكاني متسمر». (الضابط): لماذا لم يكن هذا العسكري من ضمن القائمة. ذهبَ «مساعده» بلمح البصر إلى المكتب الرئيسي في الثكنة العسكرية ورجع بعد دقائق راكضاً بشحمه المتراقص، فتح الكشوفات وأخذ يدقق إلى أن أخبر الضابط بالمصيبة الجديدة التي لم تخطر على بالي. (مساعد الضابط): يبدو أنَّ هناك خطأ، لقد تمّ فرز شعبان ليكون في فرقة قناة السويس – الوحدة ٢٦.

(الضابط): سيتم إبلاغ القيادة بذلك، وإلى أن يحين موعد استلام التعليمات ستكون إقامته في «الميز العسكري» أي مطبخ الثكنة.

مشيتُ خلف «مساعد الضابط» لأدخل إلى الميز وأجد أمامي أربعة عساكر يرتدون مريول المطبخ، إذ كانوا منهمكين في أداء مهماتهم العسكرية.

أحدهم تولّى مهمة تقطيع البطاطس والطماطم وباقي الخضار، والآخر يقف خلف القدور الضخمة يضع التوابل بمعايير متقنة، وهناك مَن يُبرح العجين ضرباً، لكي تندمج حبيبات الطحين ببعضها، والأخير يقف مقابل التنور المتوهج بنار الحطب ويُخرج أقراص الخبز الحارة، التي يعلوها دخان قد وصل ريحها إلى أنفي، ممّا هيَّج طبول معدتي.

وضعَ العسكري الذي يُقطّع الخضار سِكّينه، وهمَّ بمصافحتي قائلاً بسخرية: أهلاً وسهلاً بكَ في المطبخ الملكي، أنا «حمدي»، (شعبان): شعبان زميلكم المُؤقت إلى أن يأمر الله بغير ذلك. (حمدي): أنتَ الزائر الثاني في هذا اليوم، لقد سبقكَ «راضي» الذي يُفرغ غضبه على العجين هناك. جلستُ مكانه وذلك حسب تعليماته، ثم ذهب حمدي لمساعدة زميله في نقل الطعام من القدور الكبيرة إلى الموائد التي أُعدت للجميع.

بعد يوم شاق قضيته في الرحيل والعمل في المطبخ دون استراحة، وضع الجميع الخِرق التي تُعتبر مكان المبيت على أرضية الميز، وتمَّ الاستلقاء في حركة بطيئة مع سماع طقطقة العمود الفقري المتصلب والمشتاق إلى الراحة. هنا بدأ حمدي الشاب الصعيدي بتلاوة القرآن الكريم تلاوة جميلة بتجويد حسن عن ظهر قلب، لقد آنستني تلاوته وأنستني صعاب اليوم وأدخلتني في حالة

من الاسترخاء اللذيذ.

وأثناء الاندماج مع الصوت الشجي وبينما أنا مغمض العينين وقلبي يهيم في الأفق، علا صوت قرد في الأرجاء، فتحتُ عيني بهلع قائلاً بيني وبين نفسي: (هذا ما كان ينقصنا اليوم لتكتمل الحفلة)، عدَّلتُ من جلستي وأنا أنظر إلى مصدر الصوت لينتفض جسدي بأكمله.

لقد رأيتُ راضي يجلس جلسة القرفصاء بيدين ممدودتين إلى الأسفل، وبنظرات من رأس مُنَكَّس كالقرود، فهممتُ بالذهاب إليه، لكنّ حمدي الذي كان جالساً منتصبَ الظهر، وضع يده على ساعدي كإشارة منه إلى عدم التحرك مع الاستمرار بالتلاوة، التي أخذ يكرر بها بعض الآيات بصوت أعلى من ذي قبل.

مع تكرار التلاوات أخذ راضي بالتنطط من زاوية إلى زاوية دون توقف، إلى أن هدأت حركته، ثم استلقى في مكانه ودخل في سبات. حملناه لنضعه في المكان المخصص لمبيته، ثم دثَّرناه باللحاف لكي يكمل نومه ويعطينا الفرصة لكي نأخذ قسطنا من الراحة.

لكن بعد الرعب الذي رأيتُه أبى النوم أن يزورني، بزغَ نور الفجر فتسلل من الباب الموارب، فقام الجميع ليُرتِّبوا غرفة النوم لكي ترجع إلى أصلها «ميز»، وخلال دقائق رجع النحل إلى مصنع الخلية، فهذا يكسر البيض في القدر والآخر يعجن، وذلك لإعداد طعام الفطور للثكنة العسكرية.

جلستُ بجانب حمدي لأُعينه على تقطيع السلطة: «هل من الممكن

أن تخبرني عمّا حصل بالأمس؟». (حمدي): يبدو أنَّ صاحبنا يعاني من المس، أو أنَّ هناك مَن وضع له السحر، لا تقلقْ.. فمع التلاوات اليومية سوف نعالجه بإذن الله. لا تحملْ هماً الآن وأكمل عملك، فهناك أسود ضارية جائعة تنتظر التهام فرائسها.

توالت أحداث عالم القردة لمدة ثلاث ليالٍ مرعبة، لم أذق خلالها طعم النوم الهانئ، لكنَّ ما حدث في الليلة الرابعة هو الفاصل الذي ترسَّخ في عمق ذاكرتي المظلمة، والذي سوف يغزو منامي بكوابيس لن تنتهي إلَّا بالرحيل عن هذه الدنيا.

بدأ حمدي بتلاوته، وفي بدايتها هاجَ راضي، وأخذ يدكّ الأرض دكاً، وعلا صراخه بلغة القرود التي لا أحد منا يفهمها!، ومع تكرار الآيات تزداد حركات راضي المرعبة، فيقترب من حمدي ويحرّك رأسه يميناً ويساراً ونحو الأسفل، وهو ينظر إليه بنظرات من الجحيم، ويحاول أن يجعل صوتَ الشر أعلى من صوت حمدي الذي يزيد من علو صوته في المقابل، فوضعنا أيدينا على آذاننا من شدة الصراخ.

صعدَ راضي على الطاولة، وبدأ بقذف ما يصل إلى يده من قدور وملاعق، وكُنّا في المقابل نحاول أن نصدّ ما أمكننا منها، وأحياناً يباغتنا بضربة مباشرة على الرأس، إلى أن تناول السكين. وما إن وقعت بين يديه حتى قفز عالياً ليهوي بها على حمدي، الذي لم يتحرّك من مكانه قدر أنملة.

لم يغرسها في قلبه كما ظننا، لكنه كان يحاول أن يخيفه لكي يسكته، والآخر لم يمتثل إلى طلبه، فتكلَّم راضي بصوت طفل باكٍ:

أرجوكَ توقَّف!، أنتَ تؤذيني بشدة. (حمدي): أخبِرني مَن أنتَ؟ وما اسمكَ؟، (راضي): لن أخبركَ، فهذا الجسد لي بأمر من كبيرنا ولن أبرحه، أنتَ تريد أن تعرف اسمي كي تُخرجني منه.

باغتَ حمدي راضي، فوضع كفّ يده على رأسه وأخذ يتلو بسرعة والآخر ينتفض مكانه وكأنه يُشوى على لهيب الجمر، وما هي إلّا صرخات يتلوها بكاء، يتلوها نحيب، حتى هدأ الجسد الممسوس وسكنَ في مكانه فاتحاً عينيه، ناظراً إلى وجوهنا وكأنَّه قد رجع للتو من سفر بعيد.

(راضي): ماذا هناك؟، وما هذا الذهول البادي على وجوهكم؟، أخذ حمدي الماء وقرأ عليه سورة الفاتحة ومسح على وجه راضي، ثم ألزمهُ بأن يشرب منه من بعد التسمية. امتثلَ راضي وعلامات التعجب تحوم حول رأسه. روينا الأحداث الأخيرة على مسامعه وهو في ذهول يتبعه صمت مع نظرات مكسورة، فقال راضي في نهاية هذه الليلة المرعبة: إنَّها زوجة أبي لا محالة!

استلقيتُ على فراشي وأنا أسأل نفسي: هل ما حدث من فعل السحر ومسٌّ من الشياطين، أم حالة نفسية؟، كما يقول العلم بأنَّ ٩٩٪ من حالات المس الشيطاني أو الاعتقاد بالسحر يكون نهايتها امراض نفسية تحتاج تدخل من الاستشاريين والأطباء النفسيين لعلاجها!

وكما جرت العادة، فمنذ الفجر نهض الجميع إلى أعمالهم بطريقة آلية، لكن في هذا الصباح سمعتُ أحداً يصدح باسمي في الأرجاء،

خرجتُ من الميز لأنظر في طلب المنادي، وإذ (بمساعد الضابط) يأمرني بالتقدم ويصرخ أمام أنفي لأشتمّ عبق العفن الخارج من جوفه: أين التحية يا عسكري؟، انزلْ الآن لتؤدي ١٠٠ تمرين من تمارين المعدة. ألقيتُ التحية معتذراً ونزلتُ امتثالاً لأوامره على أن يعفيني من السجن.

(مساعد الضابط): ٩٨، ٩٩، ١٠٠.. هيّا يا عسكري شعبان ألقِ التحية والحقني إلى غرفة الضابط، سرتُ خلفه وأنا لا أشعر بجسدي، فكان يتحرك بطريقة آلية مع أطراف غزاها التنمّل من الوخز الذي أشعر به وأنا على وشك أن أسقط من شدة التعب، لكنَّني قررتُ أن أصمد. (الضابط): اذهبْ واستعدّ للمغادرة، فبعد ساعة من الآن سيتم ترحيلكَ بشكل قانوني إلى مقركَ الأصلي في قناة السويس.

انقضت هذه الساعة ما بين ترتيب أغراضي وتوديع الزملاء، ثم خرجتُ على مضض لانتظار وسيلة النقل وأنا أقف حاملاً جبال الهون على ظهري وسط لهيب الشمس الحارقة. توقفت سيارة بيك آب بجانب الثكنة، وأنزلت المواد الغذائية وبعض المستلزمات الأخرى، وتقدّم مساعد الضابط مخاطباً «السائق» الذي أومأ إليه بالمقابل ونظر إليّ.

ركبتُ في الخلف ووضعتُ حقيبتي مستنداً عليها في الهواء الطلق. مكانٌ مفتوح وسيارة تمشي في الطريق الخالي من البشر، فلم أحسّ بنفسي إلا ودخلتُ في حالة غيبوبة من شدة الإرهاق البدني والذهني.

سمعتُ حديثاً بجانبي وهناك من يلكزني، فتحتُ عيني فإذا بـ «ضابط» جديد بشوش الوجه: «أخيراً العسكري شعبان الذي أتعبَنا معه، لقد طلبناكَ مرتين للخدمة في ثكنتنا، ولكن شاء القدر أن يرميكَ بعيداً عنا، هيا اذهب للراحة في مخدعكَ الآن، ولنا حديث آخر فيما بعد». نظرتُ إلى الساعة لأُصدم بأنَّني نمتُ قرابة أربع ساعات طوال الطريق.

وضعتُ أغراضي في الدولاب المخصص لي ونظرت إلى السرير بامتنان لأبتسم فرحاً، حيث إنَّني في عنبر محترم، ولي سرير ودولاب بدل النوم في المطبخ على الأرض. ذهبتُ إلى الضابط وأول شيء خطر في بالي هو التحية العسكرية.

(الضابط) بابتسامة أبوية مُريحة: أهلاً بكَ يا عسكري شعبان، إنَّ الوحدة ٢٦ مهمتها هي حراسة قناة السويس(4) على الساحل والصحراء المقابلة لها، وتمّ فرزكَ منذ الآن في صحرائها على أن تباشر الحراسة مكان العسكري المرابط هناك منذ الساعة الثامنة عشرة حتى السادسة من اليوم الذي يليه.

ركبَ مجموعة من العساكر في سيارة عسكرية يُطلق عليها «البُكس»، حيث إنَّها من سيارات الدفع الرباعي المكشوفة المخصصة لنقل العساكر إلى مواقعهم واستلام الباقي. ركبتُ معهم وكانت هناك كثير من الأسئلة تحوم في ذهني، لكن لا يوجد مَن يجيب عليها!، فمعرفتي بالموجودين صفر.

(السائق العسكري): عسكري شعبان هذا مكان خدمتكَ، ولا تنسَ

هذه التعليمات أبداً، لا تُشعل ناراً للتدفئة، فرغم أنّنا في نهاية فصل الصيف، لكنَّ هناك نسمات باردة في هذا المكان الخالي، تدفَّأ في مكانكَ مستعيناً باحتكاك أطرافكَ، ولا تُشعل حتى لفافة تبغ.. فإنَّ قبائل العرب هنا منتشرة في كل مكان وإذا وجدوكَ لن يتناقشوا معكَ بل مصيركَ هو الموت، خُذ سلاحكَ وقِفْ هنا إلى أن نأتي لاستلامكَ في الساعة السادسة لتكتب تقريركَ وتسلِّمه للقيادة.

ذهبتُ لأستلم سلاحي فإذا به عصاة من الخشب، نظرتُ إلى «السائق» لينظر إليّ مجدداً نظرة خالية من أي معنى. أخذتُ السلاح.. أقصد العصاة، ثم أعددتُ التراب ليكون مجلسي في هذه الليلة التي قررتُ أن أجعلها للتأمل ولرسم مستقبلي بهدوء وسكينة مليئة بالعزلة.

رحلت الشمس كلياً وغدا الأفق حالك السواد، لا يوجد ما يمكن أن أراه أمامي حتى راحة يدي. أسمع صوت الذئاب في نقاش من حولي، ما بين عويل طويل ويرد عليه الآخر بعويل أطول، ممّا أثار الرعب في أركان جسدي المنتفض من البرد والخوف، هل لي من نجاة؟!

إنسان وسط الخلاء يتحوّل إلى فريسة لكل ما يخطر في بالكَ، أفاعٍ منها السام ومنها العصّار، والعقارب بألوانها التي تختلف بدرجة سمّيتها، وهناك الذئاب الجائعة التي لا ترضى إلّا بفريسة حيّة لتتلذذ بدمائها المنبثقة من الأوردة الحارة، وختاماً العرب وهم قبائل البدو الذين يعيشون في الأرجاء والذين يمارسون رعي الغنم والزراعة، ونتكلم هنا عن زراعة مسموحة وزراعة محظورة والتي من خلالها

تتم ممارسة الاتجار الممنوع بالمواد المخدرة، ولا نُعمّم الأمر عليهم جميعاً، بل إنه يقتصر على بعضهم.

ومن خلال ممارساتهم التي لا تبدأ إلّا في الخفاء، يتمّ نقل المخزون من المحصول من جهة إلى أخرى وهم مدجّجون بالأسلحة الآلية، التي سوف أحمي نفسي منها بالعصاة في حال تمّ الهجوم على شخصي الكريم!

بينهم وبين العساكر المنتشرين في الأرجاء صولات وجولات، فمنهم من وقعَ في قبضة الحكومة ومنهم من أفلتَ من العقاب، ومنهم من ينتظر أن يأخذ بثأره ممّن أغارَ على داره ونزع بضاعته المحظورة من بين يديه، وأيضاً بسبب موت رجالهم حين يتم تبادل إطلاق النيران. لكن مالي أنا ولهذا الثأر؟ كيف لي أن أتفاهم معهم؟ وكيف لهم أن يفهموا من الأصل أن لا دخلَ لي بهذا كله! أنا شاب وجبث عليه الخدمة العسكرية لمدة من الزمن، لكي أرجع وأمارس حياتي التي سوف تزدهر في يوم من الأيام، فأصبح من أكبر تجار بورسعيد.

استلقيتُ على ظهري وأنا أنظر إلى «الدب الأكبر» بكل وضوح بسبب الظلام الحالك وسط الخلاء، فخاطبته قائلاً في نفسي: لو كانت تجارتي المستقبلية بعيدة كبعد هذه النجمة سأصل إليكَ، ولو كانت تفوقها بمئات السنوات الضوئية أيضاً سوف أصل إليك، لا شيء سيمنعني من تحقيق حلمي.. وسوف أصل إن طال الزمان أو قصُر.

نظرتُ إلى ساعتي على أمل أن تكون بنات أفكاري قد دفعت

عقارب الزمن، وبالفعل لقد آن الأوان لكي تبلغ الساعة العاشرة مساءً.. أقصد الساعة الثانية والعشرين كما هي لغة العسكر، ورغم أنَّنا في أواخر فصل الصيف، لكن بدأت نسمات الهواء الباردة تغزو الأفق، وقد ساهمَ الفراغ من حولي في زيادة شدة البرد على أوصالي مع منعي من نار الدفء لكيلا اموت من البرد لكن اموت برصاصة العرب.

لدغَ العقرب الكبير خانة الثانية عشْرةَ معلناً دخول العاشرة مساءً، صرخةٌ دوت في الأرجاء، انتفضَ قلبي وكذلك انتفضت ركبتاي لأحتضن العصاة، وكأنها ملاذي الذي سوف ينقذني في مصيبتي. توالت صرخات الاستنجاد: أرجوكم ارحموه، اقتلوني أنا ولا تمسوه بسوء!

(شعبان): ماذا أفعل؟، الأوامر تقضي بعدم مغادرة مكاني، هل أذهب لأنقذها؟ ستكون العواقب وخيمة.... توالى إطلاق نار كثيف، ممّا جعلني أختبئ تحت التراب وكأنني من سحالي الصحراء.

تغيَّرت الأصوات إلى صرخات رجال يعذَّبون، هناك من يقول: أرجوكَ اقتلني ولا تبترْ أطرافي! والآخر يرجو أحدهم بعدم قطع أذنه، وهناك فتاة تصرخ بحرقة وكأنَّها تعاني عسر الولادة.

ما هذا الجحيم الذي هويتُ فيه؟ اللهم ارحم حالي وقِلة حيلتي.. اللهم لا ملجأ منكَ إلا إليكَ!، هل نزلت دموعي؟ بكل تأكيد.. ازدادت أصوات المعذَّبين مع صراخهم الذي يُدمي القلب، وقد كانَ صوت الفتاة مميزاً من بينها، إنَّها صرخات ألم تتبعها صرخة الموت!

اكتملت الليلة بأصوات حوافر تدكّ الأرض من تحتي قادمة

باتجاهي، فحميتُ رأسي بين مرفقيّ ولا أهمية لسلاحي.

مرت بجانبي خيول عديدة وبدأت معها معركة فحواها رصاصات مع سكرات الموت لعدة أشخاص.. وختاماً تكلّمت (الفتاة) بصوت مختنق خلف البكاء: لتكن رصاصتكَ في قلبي.. هدوء في الأرجاء تبعهُ دوي رصاصة أخيرة تعالى صداها في الأفق المظلم.

ما زلتُ في وضعي تحت التراب ولا أقوى على الحركة، جفّ حلقي وقد شُلّت أطرافي من الرعب الذي تمكّن مني، هل أنا أيضاً أصارع سكرات الموت؟، لا أعلم.. لم أخُض تلك التجربة مسبقاً!، استمريت على حالي إلى أن سمعتُ صوت الفرج.

بُكس العسكر يقترب معلناً انتهاء خدمتي لهذا اليوم المشؤوم، تقدَّم السائق على قدميه يبحث عني، فوجدني ملتحفاً التراب، فأمرَ باقي العساكر بمساعدتي على النهوض والاطمئنان على حالي. أطراف متصلبة، وجه مبقّع بالدموع المختلطة بالتراب. اسقوني الماء، وركبتُ معهم للرحيل إلى مستشفى الثكنة العسكرية.

فتحت عيني وأنا مستلقٍ على السرير الأبيض، وإلى جانبي (الضابط) المسؤول عن وحدتي: حمداً الله على سلامتكَ، ما بكَ أخبرني؟، (شعبان): «لقد حدثت معركة بجانب موقع خدمتي»، وأكملتُ سرد باقي الحكاية للضابط، الذي ما زال ينظر إليّ ببرود مع ابتسامة أشعلت الغضب بدلاً من الراحة في داخلي.

(الضابط): «لا شيء ممّا ذكرتَ قد حدث فعلاً في ليلتكَ، استرحْ الآن وسوف أتابع حالتكَ مع الدكتور». أمسكتُ ذراعه فنظر إليّ

بغضب بسبب قِلة احترامي له، سحبتُ يدي وأخبرتُه بكل أدب: أرجوكَ لا تتركني معلقاً بين السماء والأرض، ولا تذهب قبل أن تُطفئ النار المتأججة في داخلي!، أحتاج أن أعرف ما تعرفه عن هذا المكان.

(الضابط): تريد أن تعرف القصة الكاملة أم مختصرها؟، (شعبان): القصة كاملة أرجوك! (الضابط) سحبَ الكرسي وجلس: لكَ ما طلبت، فهذا أبسط حقوقكَ بعد ما عاصرته في ليلتك.

بجانب موقع خدمتكَ يوجد مركز خدمة لمجموعة من العسكر المرابطين في هذا المكان، على أن يتمّ استبدالهم كل ستة شهور، يتمّ تزويدهم بالمؤونة مرة واحدة كلّ أسبوعين من خلال الثكنة الرئيسية التي نحن داخلها الآن.

أمّا سبب بناء المركز ومرابطة العسكر فيه، فهو كثرة الخلافات بين العرب من حوله، وأيضاً لتقليل عمليات التهريب التي تحدث ليلاً، حتى وإن كانوا لا يتدخلون في أمرها، فوجودهم في حد ذاته يشكل رهبة لدى تجار المواد المخدرة.

يمرّ الرُعيّان مع ماشيتهم على العسكر بين الفينة والأخرى، يأخذون بقايا الطعام من خبز وخلافه لتكون من نصيب الماشية. وفي المقابل يتزود العسكر من لبن الرعيان الرائِب، وكما يتزودون أحياناً باللحم الطازج الذي ذُبح حديثاً، ويتبادلون أطراف الحديث معهم، ممّا أدى إلى نشوء صداقة وأخوَّة بين العساكر والرعيان.

إلى أن جاء اليوم الذي كان فيه العسكري «جابر» يتوضَّأ للصلاة، فمرّت (فتاة) تجر خلفها ماشيتها: «يا عسكري من فضلكَ»، (جابر)

وهو يمسح على مرفقيه ليُنزل بقايا الماء: «تفضلي؟»، (الفتاة): «أرسلني أبي لأستلم بقايا خبزكم، وهل لك أن تسقيني من مائكم؟ لقد فرغت قِربتي وجفَّ لساني؟» تقدّم جابر حاملاً قدحاً من الفخار يتقاطر منه ندى الماء، وفي يده الأخرى شوال يحتوي طعام الماشية.

ارتوت الفتاة من خلف خمارها وعبرّت عن شكرها وأخذت شوالها ثم رحلت من المكان وسط نظرات جابر المتسائلة: «كيف لفتاة أن تسرح لوحدها في هذا الخلاء؟ ومن هو أبوها الذي أرسلها إلى مكاننا بالتحديد؟!».

في اليوم التالي، وقف جابر يروي جسده بالطاقة الشمسية مع نسمات الصباح العليلة، حاملاً بين يديه كوب الشاي، وفي اليد الأخرى لفافة تبغ، وأخذ يتجادل مع نفسه: ماذا أريد الآن؟، لا شيء.. فكل شيء عندي، الحمد لله رب العالمين. سمعَ عندئذ صوتاً يقول: (السلام عليكم)، نظرَ إلى المتحدث، فانتفضَتْ أوصاله وارتجف معها لبُّه.

(جابر): أأنتِ التي زُرتِنا في الأمس؟، (الفتاة) التي اختارت أن تُظهِر عينيها الكحيلتين لغاية في نفسها: «نعم، كيف حالكَ؟»، (جابر): «ب.. بخير، هل أُحضر لكِ الشوال وتسقيني من لبنكم؟»، (الفتاة) مع قهقهة دلال: «لأسقيكَ من لبننا الذي لن تشرب مثله ما حييت».

ذهب جابر وعاد بعد هنيهة وفي يده الشوال الذي يحتوي على بقايا طعامهم، فوجد أنَّ الفتاة قد جلست على صخرة وأخذت تحلب

الماعز ذات الثدي الممتلئ وقد كشفت عن ساعديها، أما جابر فقد أطالَ النظر ببلاهة وهو يقول في خلده، أيهما اللبن؟ لَبياضُ ساعديها أنصع من لبنها!

ربطَ الشوال بحمارها، ثم استدار فوجد القمرَ وسط النهار يقف أمامه، وفي يديها البيضاوين إناء من الفخار يقطر لبناً، وعينان سوداوان ترميان السهام لتصيب قلبه بمقتل. (الفتاة) بابتسامة بدت من ارتفاع وجنتها التي قلّصت عينيها: «تفضل يا حضرة الضابط»، مدَّ (جابر) يده التي لامست يديها: لستُ بضابط، اسمي العسكري جابر.

أثناء شربه أخذ ينظر إلى وجهها محاولاً رسم تفاصيله من خلف الخمار القرمزي الذي لفَّته على رأسها وتلثّمت بالباقي منه. انتهى فسلَّمها الإناء، فتعمّدت الفتاة لمس أصابعه حين استلمت إناءها، وعند الملامسة نقلت مشاعرها إلى قلبه. (الفتاة): هل ارتويت يا (سي) جابر؟، (جابر): نعم، لقد ارتويت من اللبن ولم أرتوِ من لقائكِ، هل ستزورينا في الغد أم أنَّ أباكِ الشيخ هو من سوف نلقاه؟، (الفتاة): بل أنا وقلبي معاً سنزوركم.

انتهى اللقاء الذي كانت مدته دقائقَ لا تُذكر، لكنَّ هذا اللقاء قد خلَّفَ ذكريات حُفرت في القلب وهيَّجت مشاعره.

وفي الليل، اتخذّ جابر ركناً لينظر إلى النجوم ويحلم بمحبوبته البدوية التي سرقت حبيس الضلوع بنظرة من عينيها.

بدأ الصباح مع زقزقة العصافير، ودقات طبول القلب مُنذرة بلقاء

الأحبة، خرج جابر قبل الموعد المرتقب وهو يضع الشوال بجانبه وينظر في الاتجاهات الأربعة إلى أن بانَ سراب جميل المحيا وهو يقترب نحو موقعه.

زادت الأوركسترا في صدره عندما اقتربت الفتاة وهي تتمايل بغنج إلى موضع جابر، (الفتاة): (سي) جابر صباح الخير، (جابر): هل لي أن أعرف اسم الغزال.. أقصد اسمكِ؟. (الفتاة) بضحكات استحياء: اسمي «هند» ابنة شيخ قبيلة ال..، (جابر) مع ابتسامة ملء شدقيه: صباح الخير هند.

وهنا بدأت قصة الحب ما بين البدوية وبين العسكري المُكلف بحماية المنطقة وأهلها، لقاءات تتبعها لمسات وتنتهي بقبلات حارة تنقل كل كلام الحب من قلب إلى قلب من دون نطق. وفاضَ الشوق بالمحبَّين فتواعدا على عقد القران.. لكن بعد انتهاء مدة خدمة العسكري جابر، على أن يزور أهلها متقدما أهله واقناعهم بالزواج الذي يخالف اعراف العرب، ألا تتزوج البنت إلا من ابن عمها.

وقد كان كاتم أسرار جابر وصديق عمره «محمود» مرابطاً في خدمة الثكنة الرئيسية، وكلما التقيا يسكب في دلوه كل ما حدث بينه وبين محبوبته بنت العرب البدوية، وبالمقابل كان «محمود» قد نصحه بأن يبتعد عنها في هذه الفترة، لكيلا يحدث ما لا يُحمد عقباه، فتحدث الكارثة التي تقلب جميع الموازين!، لكن في اليوم الذي كان محمود ينقل فيه المؤونة إلى مركز خدمة جابر وقع على مسامعه ما كان يخشاه.

(جابر): نعم لقد حدث ما تفكر فيه، ولم أستطع كبتَ حبي أكثر من ذلك، لكن ليست هذه المشكلة الرئيسية، بل هناك جنين ينمو في بطنها، ولا أعلم ماذا أفعل بسبب ارتباطي بالخدمة العسكرية، ولا يمكنني المغادرة لكي أخبر أهلي بموضوع زواجي... إنَّني عالق وسط الخيبات!

وبعد فترة من الزمن انقطع نور «هند» ولم تَعُد كما عوَّدت جابر في زياراتها المتكررة إلى مركز العسكر، إلى أن حضرت جارية على حمارها مقابل المركز سائلة عن (سي) جابر، وما إن سمع جابر اسمه يُنطق بهذا الشكل حتى عرف أنَّها مبعوثة معشوقته «هند».

سلّمت الجارية رسالة إلى جابر ورحلت إلى وجهتها، أسند جابر ظهره إلى الحائط وفتح الرسالة بلهفة، وبعد أن قرأ نصفها بدت على وجهه علامات الألم، حيث إنَّ الرسالة لم تكن تحتوي على عبارات الشوق، بل على خطر قادم لا محالة، وأخطر ما ذُكر فيها: (لقد علم والدي بالجنين الذي يأكل من أحشائي، وبعد تعذيب مُفرط وإهانات متكررة لمعرفة والد جنيني لم يصل إلى مبتغاه، فلن أدع حبيبي يقع في شِركه لتناله أنياب غضبه، حيث إنَّه كرَّر على مسامعي جملته الشهيرة – لا يغسل عارك إلّا الدم، لا قِران مع مَن خان الأمانة – حبيبي الذي يحمل هذه الرسالة بين يديه، إنَّ هذا هو التحذير الأخير لكَ، اهرُبْ وانفد بجلدكَ فإنَّ الأنظار موزعة حول المركز، وباتَ من المؤكد أنَّ اقتحام القبيلة بفرسانها في أي لحظة منذ الآن، وهم على يقين من أن الفاعل هو أحدكم، ختاماً إلى لقاء في الآخرة).

(محمود): وكان هذا آخر ما سمعتُه من جابر، حيث إنَّ الخبر نزل

علينا كالصاعقة حين تم إرسال رأس جابر في شوال منقوع بالدم، مرمي عند مدخل الثكنة. ركبنا سيارات العسكر ورحلنا مدججين بالسلاح والدموع منهمرة حسرةً على جابر الذي حلم بالحب، لكن كما قيل: (ومن الحب ما قتل).

عندما وصلنا كان الليل قد أسدل ستاره، وبالاستعانة بكشافات الإنارة القوية الخاصة في سيارات العسكر رأينا الهول الذي يشيب له الوِلدان، لقد كانت الأطراف البشرية مبعثرة.. قدم مبتورة هنا، وأصابع مبعثرة هناك، ثمة جثة هناك تم التمثيل بملامحها، وجثة اخرى تم خلع أسنانها. والأخرى قد جُزَّت أذنها، وهناك من عُلِّق من قدمه لكن بلا رأس.. وقد كان هذا الجسد جسد جابر!

وتمَّ ختام هذه اللوحة بفتاة مسحولة من رقبتها المكسورة، حليقة الشعر، بمحاجر خالية من العينين، مبقورة البطن.. وقد كانت هذه العشيقة التي ضحت بنفسها كيلا تفضح حبيبها، لكنَّ النهاية أودت بالجميع بكل أسف، لم تكشف الفتاة عن حبيبها، فتمَّ الانتقام من جميع المشكوك في أمرهم.

بعد هذه الحادثة التي تمت في العاشرة من مساء ذلك الليل المشؤوم، تكرّر على مسامع كل من يسكن هذا المركز وكذلك المرابطين في الخدمة بجانبه أصوات المعذبين في نفس الساعة من كل ليلة، وكأنَّ أرواحهم المُعذّبة دخلت في نداء متكرر في جوف الزمن، إنَّ هناك من ذاق المر في هذه البقعة التي جمعت الأحبة، ثم دمرت الجميع.. وتلك كانت الحكاية كاملة بتفاصيلها.

(شعبان): هل لي بسؤال إذا سمحت حضرة الضابط؟، (الضابط) بعينين ملأتهما الدموع التي كانت تكابد للثبات في موقعها: تفضّل بكل تأكيد، (شعبان): هل أنتَ محمود صديق جابر؟، (الضابط) وقد سالت الدموع على نحره: نعم، عندما انتهت خدمتي أحببتُ أن أكمل مسيرتي في الجيش وقد غدوتُ ضابطاً، ولسوء حظي تمَّ نقلي إلى ثكنة كنتُ أهرب منها! لكن أبى الألم إلا أن يكون مخدعي بين «ظلمات السويس».

******

هنا انتهى شعبان من حكايته التي أثّرت في المجموعة من الناحية النفسية، بسبب ما حصل مع مرابطي المركز وتضحية هند من أجلهم. وفي نفس الوقت هناك رعب يكابد الجميع سترهُ في جنح الظلام.

ومع نهاية قصة شعبان، علقت سمكة «الشماهي» في خطاف سالم الذي انتفض من مكانه فأرعب أصحابه المتأثرين بالقصة، وعندما انتبه الجميع إلى أن خيط سالم قد اصطاد فريسته قاموا لمساعدته.

كان يوسف قد جهّز الشوَّاية الكهربائية منذ مدة، وما إن خرجت السمكة المرتقبة حتى سلَّ سكينه لتنظيف بطنها، ثم دعكها بالليمون والبهارات ووضع عيدان إكليل الجبل في جوفها، لتجلس جلسة «شجرة الدُر» على الشوَّاية.

(سالم): يوسف.. لقد لبيتُ نداءكَ، وها هي سمكة الشماهي بين يديكَ، ولم يتبقَّ عليك الآن إلا أن تبهرنا بقصتكَ.

(4) قناة السويس: قناة مائية تربط قارة آسيا وأفريقيا، في عام 1854م أقنعت دولة فرنسا والي مصر محمد سعيد باشا بحفر القناة لتوفير الوقت والجهد، وكان الحفر يدوياً خالياً من المعدات الحديثة، وقد سبَّب ذلك موت الكثير من المصريين، إلى أن تم الاستحواذ الكامل عليها من يد البريطانيين لتعود السيطرة عليها إلى جمهورية مصر العربية في عهد الرئيس جمال عبد الناصر. أول من فكّر في إنشاء قناة السويس هو نابليون بونابرت سنة 1798م، لكنَّ التاريخ له رأي آخر، حيث إنَّ أول مَن أنجز هذا المشروع الذي لم يكتمل على أرض الواقع هم الفراعنة وذلك قبل الميلاد.

القصة الثانية يرويها

«يوسف»

(مافيا الحرم)

إذا فقدتَ أحدهم، ابحثْ عن أطرافه في حاويات القمامة..

طوّقت سيارات النجدة الحرم المكّي وهاجَ العسكر وهَمّ رجال الشرطة بتنفيذ خطة الطوارئ، ومن بينهم رجال المباحث في اللباس المدني، كلٌ في مهمته، حتى إدارة الحرم بكوادرها، وهناك جلسَ تاجر الفنادق المشهور مع المحقق لكي يُدلي بأوصاف ابنته المفقودة، أمّا (الأم) فقد كان لها رأي آخر، إذ إنَّها أخذت تبكي بحرقة وهي تكرّر: لقد خطفوا «ودّ»!

******

لقد تمَّ تسليم تقرير القضية الأخيرة التي خرجت من عهدتي إلى وحدة التحقيقات الخاصة في قضايا محافظة مبارك الكبير، التابعة لوزارة الداخلية الكويتية وقد بيّنَت جميع ملابسات الجريمة، وكيف لهذا التقرير أن يُدين المجرم مع سبق الإصرار والترصد، مع كيفية تخطيطه لأدائها قبل وقت حدوثها؟!

وبعد فترة وجيزة استلمتُ ظرفاً صادراً عن مكتب وزير الداخلية ممّا أثار حفيظتي، هل هو كتاب شكر على خدماتي الجليلة؟ أم أنَّ الواسطة تدخَّلت لتغيير مجريات التقرير ممّا يُخفِّف العقوبة على المجرم؟ لا أعتقد أنَّ هذه الأمور تحدث في دولة الكويت.

دخلتُ إلى مكتبي وأشعلتُ لفافة التبغ مع فنجان القهوة الفرنسية لكي أقرأ المكتوب على مهل بكامل تركيزي، فتحتُ الظرف وأخرجتُ الخطاب فوقعت عيني على التوقيع والختم، نعم هو الوزير بعينه.

قرأتُ محتوى الرسالة وكادت عيني أن تسقط في حِجري، هذا آخر ما كنتُ أتوقعه!، أغلقتُ الظرف وهرعتُ إلى منزلي لأجد والدتي أطال الله في عمرها جالسة على الأرض كعادتها، تاركة الكنبات الثمينة لضيوفها الذين يزورونها بين الفينة والأخرى، لمناقشة أحوال نساء الأمة وطرق حلّ المشاكل العُظمى في الخلافات العائلية بين سيدة المنزل وزوجة ابنها. قبّلتُ رأسها وجلستُ إلى جانبها، ردَّت السلام مع ابتسامة خلّابة تنسيكَ همَّ الدنيا، تلاها قدح الشاي الذي وضعته بين يدي بطريقة آلية.

(يوسف): أمي أحمل لكِ البشرى، (أم يوسف): أنتَ البشرى يا بني، إذ لا يأتي منكَ إلا كل خير، أخبرني.. ماذا تحمل لي من أخبار؟، (يوسف): بسبب جهودي في وزارة الداخلية، تمَّ ترشيحي لكي أتدرَّب في المملكة العربية السعودية، وبالمقابل تمَّ ترشيح أحد المحققين لكي يتدرب مكاني في الكويت. وأجمل ما في هذا الترشيح هو أنَّ فترة تدريبي ستكون في وحدة التحقيقات الخاصة في «مكة المكرمة» وقبل موسم الحج بأشهر عدة.

(أم يوسف) بابتسامة تُخفي دمعتها التي كادت أن تنهمر: لأنَّكَ ولد صالح ولم تقصّر مع والدتكَ في شيء فإن الله يُحبك، اذهبْ وتقرَّب من الله العظيم في الأراضي المقدسة، فمن جهة تتعلم أصول

دينكَ، ومن جهة أخرى تكتسب المزيد من الخبرات في مجال عملكَ. يوسف، لقد بدأتُ أشتاق إليكَ قبل رحيلكَ، (يوسف): سلَّمتُ أخي مصروف المنزل، وأوصيتُه بكِ خيراً، وسوف يُلغي جدول الرحلات البحرية لصيد السمك لكي يكون إلى جانبكِ على الدوام.

قَبَّلتُ باطنيّ كفَّيها المُفعمين برائحة الأمومة التي لا أنساها ما حييت، وخرجت لاستكمال إجراءات النقل إلى مكة المكرمة بما تتطلبه من موافقات مسؤولين ومعاملات مُستنديَّة مملة. وبعد أن استلمتُ الموافقة النهائية تقدَّمتُ إلى شركة الطيران لكي أحجز تذكرة ذهاب، على أن تكون العودة بعد حين من الزمن.

اغتسلتُ وتطيّبتُ بالمسك، ثم لبستُ الإحرام وفتحتُ الباب لأجد والدتي في انتظاري، تأمَّلتني وكأنَّها تنظر إليّ لأول مرة. نظراتها موزعة على كامل جسدي من الأعلى إلى الأسفل وهي تتمتم، وختمت فعلها بالمسح على رأسي وصدري الذي وضعت رأسها عليه وأطالت الاحتضان.

أثناء اختراق الطائرة للغيوم، كان كابتن الطائرة ينقل للمعتمرين خبر الاقتراب من الميقات، في لمح البصر أصبحت الطائرة خلية نحل طنّان مزعج، كابينات الحقائب تُفتح بطريقة لا تنم عن الحضارة وممرات الكراسي غدت حلبة مصارعة، بدأ الركاب بنزع ملابسهم لارتداء الإحرام أمام الجميع، وذلك بسبب الطابور المصطف عند باب دورة المياه، ثم باغتني مِرفق الرجل الذي بجانبي حيث ارتكز في خاصرتي من دون كلمة «المعذرة»، إذ إنه يتوجَّب عليّ أن أحترم وضعه لأنه يريد أن يعتمر وأن يبدّل ملابسه بأسرع وقت!

بدأت التلبية التي أدخلت السكينة على قلوبنا بصوت هادئ «لبيك اللهم لبيك..»، وعلى حين غُرة يقف أحدهم وقد دبَّ الحماس في قلبه الخاشع كما هو واضح على محيَّاه، ليُلقي على مسامعنا طريقة الاعتمار ومحظورات الإحرام، من دون أن يطلب منه أحد الموجودين ذلك، ورغم أنَّه ليس هناك من مستمع.. فقد استمر في خطبته للكراسي.

وصلنا إلى مدينة جدَّة ومنها إلى الحرم المكِّي، حيث إنَّ الجسد بدأ يستقبل ذبذبات السعادة الممزوجة برهبة الأراضي المقدسة. سرتُ ماشياً إلى بوابة الملك فهد بن عبد العزيز، وبينما أنا ماضٍ في طريقي، فوجئتُ بأنَّ هناك مَن شدَّ الإحرام الذي أرتديه بطريقة مستفزة، توقفتُ ونظرتُ حولي وإذا (بفتاة) من الجالية الأفريقية: «عمو أريد طعاماً»، (يوسف): هل أشتري لكِ طعاماً؟، (الفتاة): «بل أريد المال لأشتري»، فأخرجتُ رِيالاً من محفظتي.. نظرتُ إلى يدها التي تمسك إحرامي بقوة، ثم طرفتْ عيني إلى اليد الأخرى لأجدَها مبتورة وقد تمّ كيّ الجرح بطريقة بدائية شوهت ساعدها، سلَّمتها المبلغ وأخذتْه من يدي لتنظر إليه باشمئزاز مطلق، ثم رمته في وجهي ورمت بعدها دعوة مبالغ فيها: (أرجو أن تنال حتفكَ قبل أن تقوم من مقامكَ)!

عند مدخل البوابة ظهرت «طيبة» بأركانها السوداء المُذهبة، الكعبة المشرفة.. وصلت ذبذباتها إلى أوصالي فأدخلتني في حالة ما بين الخشوع التام والسكينة التي أَنْسَتني الدنيا بما فيها. أتممتُ عُمرتي وتحلَّلتُ، ثم استلقيتُ على سريري وأنا لا أشعر ببدني من شدة

التعب.

في اليوم التالي نظرتُ إلى نفسي في المرآة، لكي أشجعها على إعطاء انطباع أوليّ جيد في وحدة التحقيقات الخاصة في العاصمة المقدسة، دخلتُ ومعي كامل أوراقي لأجد موظفَ الاستقبال قاطب الحاجبين يسألني عن حاجتي، وعندما عرّفتُه بنفسي وقف بكامل احترام وحيّاني التحية العسكرية، فأرهَبني تحوُّل حاله من العبوس إلى الاحترام الكامل بسبب رُتبتي! ولماذا لا تُعامل الناس بما تحب أن يعاملوك!.

سلّمتُ أوراقي إلى إدارة شؤون الموظفين، ثم أوصلني موظف الإدارة إلى مكتب مرشدي ومدربي طوال فترة تدريبي، المحقق (فوّاز) الذي استقبلني أفخم استقبال: أهلاً وسهلاً بزميلي الجديد الذي سوف أستفيد منه كثيراً في الأيام المقبلة، أما اليوم فسيكون غداؤك في منزلي.

وكما هي عادات العرب المحببة إلى القلب من استقبال الضيف وإشعاره بأنَّه في مكانه وبين أهله، وأثناء الغداء في منزل المحقق فواز تبادلنا أطراف الحديث.. (يوسف): أنا عاجز عن الشكر على حسن استقبالكَ الذي أذابَ الجليد منذ المصافحة الأولى. (فواز): لا شكر على واجب، أنتَ بين أهلك وناسك، (يوسف): هل من الممكن أن تعطيني نبذة عن طبيعة عملنا أو عن الموقع الذي سوف نركز فيه جلَّ أبحاثنا وتحقيقاتنا؟، (فواز): من المفترض أن نتجاذب هذا الحديث في الغد، من بعد أن تلتقط أنفاسكَ وتندمج في أجواء العمل، لكن لا بأس في نبذة بسيطة.

أردفَ (فواز) وهو يُقطّع اللحم ويوزِّعه في الصحن أمام يوسف، الذي بدأ يشعر بالتخمة من كمية الرز التي ألتهمها مجاملةً: جلُّ أعمالنا في الوقت الحالي هي تطهير الحرم، والتطهير يرمز إلى نقطتَين، أولاً: التطهير السكاني حيث إنَّ التركيبة السكانية قد باتت في انحدار، إذ إنَّ جلَّ الساكنين في مكة المكرمة من أهل المملكة أقل بنسبة كبيرة من الجاليات الأخرى حسب الإحصائيات الأخيرة، ومَن لم يشملهم الإحصاء أكثر بكثير بسبب إقامتهم غير القانونية، وهنا نتحدث عن الجالية الأفريقية وبعض الجاليات الأخرى.

أدخلَ (فواز) في فمه لقمة بحجم قبضة اليد، وأخذ يلوكها بكل حب، وبعد البلع قال: وما أعنيه بمصطلح «تطهير الحرم في نطاق عملنا في وحدة التحقيقات» أي تطهيره من الجرائم التي يتم ارتكابها تحديداً من قِبل هذه الجالية التي تتزايد أعداد رعاياها بشكل مرعب وهذه هي النقطة الثانية، حيث إنَّهم في فقر مدقع إلى درجة أنَّهم بلا قوت لا ليومهم ولا لغدهم، منهم من امتهنَ بعض الأعمال في الأسواق، ومنهم من اتخذ الجريمة سبيلاً لسد رمقه ورمق أسرته.

قدَّم (فواز) قدح اللبن الرائب إلى يوسف ثم أردف: تزايدهم المرعب تخللته جرائم مرعبة، من قتل ونصب وتجارة مشبوهة وأطفال السِفاح المرميين في الجوار والدجل المتبوع بالشعوذة.

(يوسف): وهل عملية التطهير تشمل القبض على غير المجرمين من الأفارقة؟، (فواز): أحسنتَ.. هذا سؤال جميل، فجلُّ أعمالنا

في الوقت الحالي في «حي المنص...» ننجزها متخفّين بلباسنا المدني لجمع المعلومات الممكنة عن الأفارقة، حيث يتم القبض على المجرمين منهم والمخالفين لشؤون الإقامة وذلك لمن ثبت عليه الجرم أو المخالفة، لكيلا نقع في المحظور مع سفارات الدول الأفريقية. وقد حدثت هذه الحادثة مراراً في السابق ووقعنا في خلافات شرسة مع القيادات بسبب أخطاء التسرع في الفعل من دون التحقق من حدوث مخالفة أو جرم، لذلك يجب التيقُّن من الأمر ومن ثم الإقدام عليه.

وبعد الراحة والاستلقاء كما هي عادة العرب عند الانتهاء من الأكلة الدسمة، خرجتُ مع فواز في رحلة في معالم الأرض المقدسة، وبين دوائرها الحكومية المتعلقة بالشرطة، وذلك ليتعرف المحقق الجديد على زملائه في مواقعهم.

انتهى اليوم الأول بذلك، وأكملت ليلتي في صحن الحرم المكي بقراءة القرآن وفي إمتاع عينيّ بجمال الكعبة المشرفة، حتى سماع الصرخة الآتية من جانب الركن اليماني، وبلمح البصر اجتمع عناصر الشرطة حول شخص وطوقوا حركته.

وما زال الشخص يصرخ بشدة بكلمات غير مفهومة، اقتربتُ لكنَّني وجدتُ أحد أفراد (أمن) الحرم يُبعدني بشدة وهو يقول: «مَن يقترب سوف يتم القبض عليه، رجاءً أخلوا المنطقة». وعلى الفور أخرجتُ البطاقة التي تمّ استلامها اليوم من مركز التحقيقات وقلتُ: تفضَّل يا عسكري هذا إثباتي، وما إن رآه العسكري حتى وقف وألقى التحية العسكرية سامحاً لي بالعبور بين أفراد قوى الأمن والشرطة.

تمَّ إخراج الشخص الذي كان يصرخ ويُرهب زوار بيت الله الحرام. أُغلق الباب في غرفة الأمن بعد تقييد الرجل في يديه وقدميه، في حضور القيادات ومدير الحرم في الفترة المسائية مع المحقق يوسف. النقيب (عايض) مستجوباً الرجل: «اهدأ وأخبرنا ما بكَ، وسوف نساعدكَ إن شاء الله»، (الرجل) بنظرات من جمر يحرق بها الحاضرين فرداً فرداً: «ماء!» فسقوه من الماء إلى أن ارتوى. (عايض): «أخبرنا وسوف نساعدك، ما بك؟»، (الرجل): بل أنا هنا لكي أساعدكم وأخلِّصكم من هذا الشقاء الذي تعيشونه، لقد آن أوان الساعة.. القيامة على مشارف الأبواب، قاب قوسين أو أدنى».

نظر الحضور إلى وجوه بعضهم بدهشة لما وقع على مسامعهم ما عدا مدير الحرم، فقد ذهب ليهمس في أذن النقيب فابتسم الاثنان. (عايض): «أكملْ باركَ الله فيك»، (الرجل): أُعلن على مسامعكم الخبر وأنتظر منكم السمع والطاعة وتنفيذ أوامري لتخليص الأمة من هذه الغمة، أنا «المهدي» الذي حضر بين أيديكم لكي تتبعوني ولا تعصوا أمري.

(الرجل): أولاً سوف نوحِّد صفوفنا، وسوف أهتم بتدريبكم على أكمل وجه، ثم إعادة غرس مفاهيم العقيدة الصحيحة في عقولكم المريضة، وبالتالي نبيد جميع الكفار من حولنا ونغفر لمن ينضم تحت رايتنا.

قطع النقيب (عايض) كلام الزعيم القائد الملقب بالمهدي، وأمسكَ جهاز المناداة اللاسلكي: إلى الوحدة ١٧، يُرجى إرسال دورية نجدة

لاستلام مُدَّعي المهدية من غرفة الأمن. خرج الجميع بمحيًّا قد اعتاد على هذه الأمور، ما عدا شخصي الكريم الذي ما زال غارقاً في هول الصدمة، كيف لكَ أن تدّعي الكذب والبهتان؟ وكيف سولت لك نفسك على الأثم في هذه البقعة المباركة؟!

بدأ الصباح يُرسل شعاع النور مُعلناً بداية يوم جديد، ومعه تبدأ مرحلة تدريبي مع مُوجهي، زميلي (فواز): أهلاً يوسف، لا تنسَ أن تضع حزام الأمان، (يوسف): صباح الخير، إلى أين العزم؟ ألن نذهب إلى المركز في بداية الصباح؟، (فواز): بل سوف نذهب إلى العمل الميداني كي تعاين الأجواء وتأخذ فكرة عامة عمّا يحدث.

تمَّ ركن السيارة في باحة، واتجهنا سيراً على الأقدام إلى الأحياء المتشعبة، بشوارعها الكثيرة الضيقة ما بين عمارات متعددة الأدوار ومتهالكة بفعل الزمن، إلى أن وصلنا إلى شارع ضيق ما بين تلك الحواري، أعتقدُ أنَّ هناك من يحرس مقدمته بسبب العيون المترصدة التي تنظر إلى القادم والغادي.

خاطبتُ «فواز» مستفسراً: هل هذا السوق قانونيّ؟، (فواز): هذا السوق هو سوق «حوش بكر»، فيه ترتكز معظم تجارة الجاليات الأفريقية المقيمة بصفة غير قانونية، حيث إنَّهم يفترشون الأرض لبيع كل ما يخطر في بالكَ من أجهزة كهربائية وموبايلات مسروقة وأغذية وربما أسلحة في الخفاء!، وهنا تجد جميع أبواب المنازل مفتوحة على بعضها بغية الهروب عند مداهمة الأمن. وأيضاً تجارة المخدرات، حيث إنَّ البضائع تُخبَّأ في الداخل ولا تعرض في العلن. وطبعاً كما ترى فإنَّ حُراس السوق من نفس الجالية، يقفون في بداية

السوق وفي نهايته وبين المشترين.

أردف (فواز): أنتَ الآن وسط «حي المنص...» وسط الجاليات التي تتكاثر في وَسَط يسوده الفقر ويحاول الناس فيه الهروب من ديارهم، إنَّهم موجودون في مكة طمعاً في معيشة محترمة لكنْ بمخالفة قوانين الدولة، الآن سوف نذهب إلى أطراف الحرم المكي.

وصلت سيارة فواز إلى نقطة قوى الشرطة عند حدود الحرم، أبرزَ هويته فسُمح له بالمرور وركنَ السيارة في موقف مخصص، نزلا ليكملا طريقهما سيراً على الأقدام، إلى أن أصبحا وسط الحرم الخارجي في قلب الزحام، فجلسا في أحد المقاهي ليحتسيا القهوة ويتبادلا الحديث مع المراقبة عن كثب لأحوال زوار بيت الله الحرام.

(فواز): «انظر إلى المجموعة المتجمهرة مقابل هذا الفندق الفخم، هؤلاء الجزء الثاني من التُجار الأفارقة.. نساء وأطفال، مهمتهم الوحيدة هي التسول بكل الوسائل الممكنة». (يوسف) بعد سكوت: حدث معي موقف في اليوم الأول وقد شغل بالي كثيراً. حضرت طفلة من الأفارقة ومارست التسول كالمعتاد، لكن كانت يدها مبتورة ومكوية بطريقة بدائية، هل كان ذلك بسبب حادث أم بسبب أمر آخر، إذ إنّني أرى أمامي الآن كثيرين من الأطفال في نفس حالها، هناك نقص في أطرافهم!

(فواز): «وسوف ترى العجب لكن ليس الآن، بل في موسم الحج تحديداً، حيث إنهم يجلسون بطريقة مستقيمة، فيراهم كل من يخرج من المرجم إلى نهاية الطريق، وجميعهم مبتورو الأطراف».

وفي خضم المحادثة ما بين المحققيْن بدأ الأمن بتطويق الحرم ومعه بدأ الهرج والمرج، ثم تقدّم المحققان إلى موقع الحدث، وسقط على مسمعيهما كلام (الأم) بتلعثم من شدة البكاء: «لقد خطفوا «ودّ»!».

استلم فواز زمام الأمور، وبدأ بأخذ مواصفات ودّ التي اختفت في الحرم المكي بعد صلاة الظهر، حيث إنَّها كانت بجوار والدتها أثناء الصلاة، وبعد الصلاة مباشرة اكتشفت والدة ودّ أنّ الفتاة التي تصلي بجوارها هي فتاة من الجالية الأفريقية بلباس يشبه إلى حد ما لباس ودّ.

تحرّك المحققان إلى مركز التحقيق على أن يَحضُر والدا المفقودة ومعهما صورة حديثة لها مع الثبوتيات الشخصية، وبعد ساعة حضر الجميع إلى غرفة المحقق (فواز)، فجلستُ إلى جانبه مستمعاً: «هل تعتقد يا «أبا ود» أنَّ هناك من خطف ابنتكَ؟»، (والد ودّ) بدموع تحاول التشبث بعينيه قدر الإمكان: «لا أعتقد فإنَّنا في حرم مقدس، ولا يوجد هناك -حسب ظني- مَن يفعل هذا الفعل الشنيع، لقد كانت بجوار والدتها -حسبما أذكر- قبل تكبيرة الإحرام، وبعد التسليم بدقائق تعالت صرخات زوجتي التي ميّزتُها من بعيد لأذهب إليها بكامل هلعي، والباقي تعرفونه يا حضرة المحقق.

(فواز) بعد الانتهاء من تدوين بعض الملاحظات: هل لديكَ أعداء؟، (والد ودّ): سؤال غريب! لكن إليكَ الإجابة إذا كانت في صالح ابنتي.. من الطبيعي أن يكون لي أعداء، حيث إنَّني أملك أكبر عدد من الفنادق في مكة المكرمة، وهذا الأمر جعل المنافسين يبدؤون

منافسة أخرى ليست في مجال التجارة، بل الهدف منها هو إخراجي من الدنيا وليس فقط من حلبة المنافسة، فقبل شهر اقتحم مقنَّع منزلي بنيَّة قتلي، ولولا رحمة الله وأجهزة المراقبة المنتشرة في المنزل التي كشفت وجوده لمَا تمَّ القبض عليه، وإلى الآن ما زالت التحقيقات جارية مع رفضه التام كشف هوية شركائه.

سجّل فواز جميع البيانات والملاحظات المطلوبة، وألقى على مسمع والد الفتاة ما يريح قلبه، ومن ثم ودّعه على أمل اللقاء القريب وودّ بين يديه. خرج والد الفتاة من المركز وبدأ المحقق بطباعة الصورة وتعميمها إلكترونياً على جميع عناصر الوحدات الأمنية المرابطين في الحرم المكي وأحيائه، وكُلّف أحد أفراد الشرطة بلصق الصور المطبوعة في جميع الأنحاء مع رقم للتواصل إذا ما وجدها أحدهم.

جلس المحقق (فواز) مقابلي على الطاولة: يوسف امنحني تركيزكَ الكامل، لم أخبر والد الفتاة بما يجول في خاطري، لكن يجب أن أخبركَ لكي تساعدني في عملية البحث، من الوارد أنَّ الفتاة لم تُفقد، بل إنَّها خُطفت حسبما أرى، حيث إنَّ عمليات الخطف في الحرم المكي متكررة، لكنَّ عمليات الاختطاف عادةً تقع بحق الأطفال ذوي البشرة السمراء لشبههم بأبناء الجالية الأفريقية، ولا أرمي بحديثي إلى العنصرية التي أنا ضدها قلباً وقالباً.. لكنْ هذا هو الواقع، وقد حدثت عمليتان قبل مدة قصيرة استهدفتا اختطاف الأطفال البيض، فباءت بالفشل من قِبل قوات الأمن المنتشرة في الحرم بلباس عناصرها المدني وقبل أن يعبروا باب الحرم.

أردفَ (فواز): لا تستبعد أي احتمال في هذه العملية، فمن الوارد أنَّ رعايا الجاليات الأفريقية قد غيّروا طريقتهم في التسول، فربما أرادوا استعطاف زوار بيت الله الحرام بالأطفال البيض هذه المرة، ومن الممكن أن يكون الأمر خلاف كل ذلك إذا كان الغرض من الاختطاف هو إسقاط المنافس الأكبر في تجارة الفنادق.

(يوسف): الاحتمالان واردان بالطبع، أرى أن ننزل إلى الميدان في خفاء، وأن نندمج مع الشارع لكي نتقصَّى جميع الاحتمالات، ونجد الفتاة بطريقة أسرع، (فواز): وهذا ما كنتُ أنوي فعله بالضبط، أريد منكَ أن تقرأ ملفات الحوادث السابقة للأحياء المحيطة بالحرم وبالأخص «حي المنص...» وأن تُلقي نظرة على مخططات البلدية لهذه الأحياء، لكي تكون مطلعاً على كل شيء، حيث إنّنا سوف ننزل إلى الشارع متفرقين ونجتمع في نهاية اليوم عند مكان أحدده لكَ مسبقاً، لكي ندلو بدلونا ونجمع المعلومات في مكان واحد.

جمعتُ الملفات والمخططات على سطح أحد المكاتب الهادئة، وبدأت في القراءة لأخذ فكرة شمولية، أنهيتُ عدداً لا بأس به من الملفات المركونة أمامي، وقد تكدست بجانبها فناجين القهوة، لكي أفتح جميع ثغرات عقلي لاستيعاب تاريخ هذه الأحياء، حتى جنّ الظلام ونزلت سِتارة الدجى فباتَ المركز خالياً من البشر، وخرجت صراصير الليل تسرح في أركانه وتعزف السيمفونية الحزينة الملائمة للأجواء. حملتُ الملفات المتبقية إلى منزلي وأكملتُ القراءة حتى وقتٍ متأخر من الليل.

فتحتُ عيني على صوت رنين الهاتف، فرفعتُ رأسي عن الملف

الذي أتلفهُ لعابي، نعم لقد غلبتني جفوني فنمتُ وسط الملفات، ردَّ (يوسف) على المتصل: ألو تفضّل، (المتصل): صباح الخير حضرة المحقق يوسف، ينتظركَ السيد فواز في المطعم بجانب «حي المنص...» بعد ساعة من الآن، (يوسف): عُلم، شكراً لكَ وصباحكَ خير.

لبستُ ملابس رياضية بألوان مبعثرة من الأعلى أحمر ومن الأسفل ازرق مع ضرورة عدم تسريح شعري وذلك للاندماج مع أزياء هذه الأحياء. انطلقتُ إلى الوجهة المرتقبة، وبينما أنا في الطريق مررتُ على شعبة المتسولات، فأدهشني ما حصل!

وهو عدم حصول أي شيء، لم تأتِني أي واحدة منهن طلباً للمال، ابتسمتُ متابعاً طريقي إلى المطعم الذي بانَ في الأفق، دخلتُ لأرى أعداداً من البشر وقفوا ينتظرون دورهم لاستلام وجبة الفطور. والغريب في الموضوع أنَّ جميعهم يتحدثون مع بعضهم بعضاً، والطباخ يوزع الطعام بطريقة عشوائية من دون النظر إلى نقود أو دور.

وجدتُ فواز وقد خرج من فوج الطنين وهو يصرخ لكي يُسمعني مراده: «أسعد الله صباحكَ، أحسنتَ صنعاً، لقد ظننتُكَ للوهلة الأولى منهم»، (يوسف): «أسعد الله أيامك، هذا بعضٌ ممّا عندكم، أردف ممازحاً: «لكنّكَ تفوّقتَ عليّ ببشاعة الألوان»، (فواز) بابتسامة: تعالَ لتتذوق أجمل فول بالطحينية مع خبز التميس.

(فواز) أثناء الأكل في جلسات أرضية قد أعدَّها المطعم للأكل

السريع: «الآن سوف نفترق وسط الأحياء، سواءً للتجارة أو لتكوين صحبة جديدة، ممّا يتيح لنا جمع ما يمكن من معلومات، على أن يتم اللقاء في ديوان منزلي بعد الساعة الثامنة مساءً، خُذ هذا الكيس»، (يوسف) وهو ينظر إلى محتواه: «هل هذه هواتف نوكيا؟»، (فواز) مع ابتسامة مليئة بالفول: نعم، قُم ببيعها وسوف نتقاسم الربع.

تفرّق الجمعان كلٌ في طريق والعزم مشحون، دخلتُ إلى «حوش بكر» ومعي الهواتف، فوقفتُ في الطرف الخارجي للسوق ووضعتُ خرقة بالية على الأرض وصففتُ الهواتف وبدأتُ أجذب المّارين إلى مكاني بالمناداة «عرض حصري.. الهاتف بالسعر الذي تحدده»، لم يكلفني الموضوع سوى المناداة مرتين فقط حتى ألتمّ الراغبون في الشراء من حولي، وبعد ذلك بدأتُ أُبدّل السعر لكي أصل إلى أعلى قيمة، ومع ذلك كنتُ الأقل سعراً في هذا السوق، ومن المارة من اشترى ورحل سعيداً، ومنهم من رماه في وجهي مع شتيمة سريعة وهو يسير مبتعداً.

بقيَ معي هاتفان، اقترب مني أحد مراقبي «سوق حوش بكر» قائلاً: «أهلاً بتاجر الهواتف، أرني بضاعتكَ»، وأخذ يقلّب الهواتف، وبعد برهة قال: «بكم هذا؟»، (يوسف): تريد أن تشتريه لكَ أم لشخص آخر؟ (المراقب): بل لي أنا، (يوسف): مجاناً، عربون صداقة. ومن هنا بدأت الصداقة ما بين يوسف والمراقب صِدّيق.

تبادلا أطراف الحديث، وعندها أخبره يوسف برغبته في أن يعطوه مكاناً بسيطاً في «حوش بكر» على أن يهديه هاتف آيفون قديم، وبالمقابل برقت عينا صِدّيق لهذا العرض المغري، وأبلغه بأنّه سوف

يحاول مع التُجار وأصحاب الشأن إذا تمت الموافقة، عندها يسلِّمه الآيفون في الغد. ومنها إلى ديوان فواز.

اجتمع المحققان في الديوان وتبادلا المعلومات عن حصيلة اليوم، وتفرقا على أن يجتمعا غداً صباحاً في مطعم الفول. في الصباح الباكر وقفتُ في طابور الجياع الذين يتدافعون للحصول على الذهب، بل هو الفول الذي سوف يعطيهم الدفعة الصباحية التي تعينهم على الأعمال الشاقة وتمدّهم بطاقة طويلة الأمد.

دخل فواز وبين يديه خبز التميس، وتزامنَ ذلك مع استلامي أطباق الفول مع زيادة في الشطة الحارقة والطحينية، يبدو أنّني أدمنت هذه الوجبة. اتخذنا حيزاً في الجلسات الأرضية وبدأنا بالالتهام. (فواز): خُذ هذا الكيس من هواتف نوكيا المستعملة، وسوف تجد هدية صِدّيق ملفوفة بكيس في الوسط.

أردف (فواز): وكما أخبرتُكَ بالأمس، لقد أوضحَ المترصدون من رجال المباحث أنَّ هناك منزلاً في «حي المنص...» وسط «حوش بكر» بابه من الحديد الأبيض الذي ذهب بياضه ليحل محله الصدأ الأحمر، مبنياً من الطابوق البني، وقد كُتِب فوق الباب «لدينا الدواء الشافي لكل داءٍ خافي، من شيخكم حمزة الوافي».

قال (فواز) وهو يلوك لقمة برزت من خده الأيمن: هناك منزل الدجال المشعوذ الذي ذاع صيته وسط الناس، حيث إنّه يدير هذا السوق والحي بأكمله، ويزوره الكثير من مرضى الجالية القاطنة في هذا الحي.. والغريب في الموضوع أنَّ له زوّاراً من الأعيان، من داخل

مكة ومن خارجها بمواعيد محددة مسبقاً عن طريق وسائل التواصل الاجتماعي.

(يوسف): ولماذا تمّ التركيز على هذا الدجّال بالذات؟، (فواز): منذ حادثة اختطاف ودّ وحاله تبدّل إلى الاختباء، حيث إنَّ باب منزله في السابق كان مفتوحاً على مصراعيه للجميع، لكنَّه الآن مغلق ولا يستقبل أحداً، إنَّه - حسب الأخبار التي وصلتني من المراقبين- لم يخرج من منزله منذ ليلة الاختطاف.

حملتُ بيدي كيس البضاعة وباليد الأخرى أطباقاً من الفول واتجهتُ إلى سوقي.. وما إن وصلتُ حتى أخذتُ أنظر يمنةً ويسرة على أمل أن أجد صديقي وما يحمل في جعبته من أخبار، وبكل أسف لم أجده، فأخرجتُ خرقتي وهممتُ بتوزيع البضاعة. نطقَ (رجل) من خلفي هامساً: مكانكَ ليس هنا يا سيد.

نظرتُ إلى المتحدث؛ فابتسمتُ ابتسامة راحة: أهلا صِدّيق، بحثتُ عنكَ ولم أجدكَ، (صدّيق): أعلم بقدومكَ لكنّني كنتُ أنتظر الموافقة النهائية، لكَ البشرى بالموافقة لكن أين هديتي؟. أخرج (يوسف) علبة الفول ووضعها بين يديه: هذه لكَ. فرحَ بها صدِّيق لكنَّ التجهم ما زالَ بادياً على وجهه، (يوسف): وهذه مكافأتكَ: «أي فون» من الجيل العاشر.

تقدّم صِدّيق وسط نظرات المحتجِّين من التجار، الذين يحاولون الدخول إلى السوق منذ مدة، فكيفَ لهذا التاجر الجديد أن يستحوذ على مكان وسطه!، وضعتُ خرقتي وبدأتُ بالبيع وبتوزيع أطباق

الفول على التجار المحيطين بي. وخرجتُ من هذا اليوم بحصيلة من الأصدقاء الجدد، الذين سوف أجتمع معهم في الغد في مطعم الفول على حسابي الشخصي من مبيعات اليوم المباركة.

في صباح اليوم التالي، مددتُ قبضة يدي إلى الشيف العالمي وهو يخلط مكونات الفول وسط القربة النحاسية الضخمة، فمدّ لي يده بوجه مليء بالاستفهام، وما إن لمس الورقة النقدية التي بين أصابعي حتى تهلل من السعادة التي بانت على وجنتيه. وصلَ وفد التجار وجلسنا الجلسات الأرضية المعتادة، فنظرتُ إلى الشيف الذي كان ينظر إليّ مترقباً ثم أومأ إليّ بالمقابل، وما هي إلا دقائق معدودة فإذا بأطباق الفول الفخارية المزركشة قد توزعت وسطنا مع شرائح الليمون والقليل من الخضراوات وخبز التميس الحار، وختاماً المشروبات الغازية وسط ذهول الزُوار من الكرم الطائي.

أكلنا وانتفخت بطوننا، فأغمضتُ عيني وبدأتُ أتأوَّه من الألم وأنا أعتصر خاصرتي، (صِدّيق): ما بكَ؟ ما هذه الحالة؟، (يوسف): إنَّني أشكو منذ مدة من ألم في خاصرتي، وقد زرت أكثر من طبيب شعبي فمنهم من شخّص المرض بحصوة في الكلى، وأخبرني غيرهم بتليُّف بالكبد، ولم أرسو على حلّ لمعضلتي وقد تكدست على طاولتي الضُرر الممتلئة بالخلطات الشعبية التي لم تؤتِ ثمارها حتى الآن.

(صِدّيق) ركَّز نظره على الزاوية دلالة على حوار يدور في نفسه وبعد دقائق: لو أخبرتني بعلّتكَ قبل أيام لكنت الآن مقابل الشيخ «حمزة» الذي لا يصعب عليه مرض، لكنّ الشيخ الآن في خلوة روحانية ولا يمكن الدخول إليه أبداً، (يوسف): شكراً على اهتمامك،

سوف أتحمّل الألم ما استطعتُ، لا عليك يا صديقي.

أعتقدُ أنّ صِدّيق قد بلعَ الطعم الذي وصل إلى معدته، ووصل معه الاستعطاف إلى النخاع. سوف أنتظر يومين لإعادة المحاولة إذا لم يأتيني بنفسه ليوصلني إلى رأس الأفعى «حمزة».. لم يخِب ظني فبعد يومين حضر (صِدّيق) إلى حيث افترشتُ خرقتي التي أبيع عليها بضاعتي وسط السوق ليهمس البُشرى في أذني: لديك موعد مع شيخنا في الغد الساعة ٧ مساءً، وقد كلّفني هذا الموعد الشيء الكثير، (يوسف) قمتُ واقفاً لأحتضنه: شكراً لكَ يا صديقي على هذا المعروف، وسوف أعوّضكَ عن كل ما خسرتَه من أجلي، ثم وضعتُ في يده ٢٠٠ ريال ممّا أذهلهُ، لأخبره فيما بعد بأنّ هذا ربع مبيعات اليوم، وهوَ مكافأة له على ما قدّمه من أجلي.

تمَّ اجتماع المحققين في أحد المقاهي الليلية المشهورة بالشاي اللذيذ، والتجمعات التي جمعت أطياف الحارات الفقيرة في مكة المكرمة، (يوسف): اللقاء مع الدجَّال في الغد، (فواز): خيراً فعلت وسوف نكون بجانب السوق في حال طرأ أي طارئ، وليكن في علمكَ أنَّنا وجدنا في حاويات «حي المنص...» الكثير من الأدوات الطبية التي انتهت صلاحيتها وهناك المستهَلك منها، وهي مليئة بالدماء ويجري أخذ العينات لمعرفة صاحب الدم، وهناك أيضاً أدوات الكي، والشكوك تحوم حول هذا المنزل، ولا يمنعنا من اقتحامه إلّا أن نتأكّد من وقوع الجرائم، فهذه مهمتكَ الثانية بعد البحث عن خيوط تؤكد وجود ودّ من عدمه في هذه المنطقة.

في تمام الساعة ٦.٣٠ مساءً من اليوم المرتقب، كنت برفقة صديقي

صِدّيق و «عمار» أحد التُجار (الذين ألتهموا الفول في مجلسي، وهو من استطاع أن يجمعني بشيخهم حمزة نظراً لعلاقته الوطيدة به)، ونحنُ نقف بجوار المنزل مترقبين الأذن بالدخول، مع بعض التظاهر بالألم المباغت بين الفينة والأخرى.

لدغَ عقرب الساعة الكبير الرقم ١٢ لتبدأ ساعة الصفر، فُتح الباب وأطلّ طيف من الفُرجة الصغيرة التي فُتحت، وبصوت أنثوي: تقدّموا كي أراكم جيداً، تمَّ إغلاق الباب مرة أخرى، وبعد ثوانٍ انفتحَ على مصراعيه كدعوة للدخول.

ما زال لساني رطباً بذكر الله دون توقف، قادتنا الفتاة المستورة في الظلام الذي ألتحفَ به جسدها، ابتداءً من رأسها إلى أخمص قدميها اللتين بدا عليهما عرج خفيف، إلى مجلس صغير بجانب باب الدخول، وما إن استقرينا في منزل الدجّال حتى تغلغلت الغُمّة إلى صدورنا. وضعتُ جلّ تركيزي في حاسة السمع لعلّي ألتقط حديثاً يفيدنا في تحقيقنا، هناك همهمات وصلت ذبذباتها إلى موقعنا لكنها غير واضحة، لكن الواضح وضوح الشمس هو رائحة العطن التي يحاولون أن يستروها بدخان البخور الذي ملأ المحيط.

طالَ انتظارنا لمدة ساعة بدقائقها الستين، وبذلك انتقلتُ إلى الخطة «ب»، رميتُ جسدي على الأرض متأوّهاً من الألم الذي باغتني على حين غُرة، ثم أعقبته صرخات أزعجت دوابَّ الأرض قبل أهلها. دخلت (الفتاة) بسرعة: ما به؟، (صِدّيق): هذا سبب زيارتنا يا مبروكة، الرجل يشكو ألماً مزمناً منذ مدة، ونريد علاجاً من يد صاحب البركات، (يوسف): لا أستطيع أن أتحمّل، يجب أن أذهب

إلى دورة المياه بسرعة قبل أن أُفسِد المكان، سوف أُخرِج كل ما في معدتي في أي لحظة.

حملني الموجودون حتى أقف على قدمي وأسير خلف الفتاة التي كانت تمشي بسرعة وعيناها تستديران نحوي لكيلا أُدنِّس بيتها المبارك، وما زاد من رهبتها هو تلك الأصوات التي خرجت من فمي وكأنّني على وشك أن أُخرج ما في معدتي في أي ثانية. وصلنا بعد ما قطعنا ممراً ضيقاً، ولكنه كان يحتوي على غُرف متقابلة مغلقة الأبواب.

دخلتُ إلى دورة المياه وزاد صياحي علواً، والفتاة تقف في الخارج وأشعر بأذنها وقد التصقت بالباب، عندئذ وضعتُ إصبعي في لساني وبدأتُ عملية الاستفراغ مُتعمِّداً لكي أتمكن من إقناعهم بمرضي.. وضعتُ رأسي على الباب لكي تصل ذبذبات الأصوات إلى أذني، لكن.. لا شيء غير السكون!

فتحتُ باب دورة المياه بهدوء لأختلس النظر، خرجتُ كالظل أخطو خطوات العروس التي لا صوت لها، أسترق السمع من خلف الأبواب إلى أن وصلتُ إلى باب تصدح خلفه الكثير من الأهازيج، فوضعتُ أذني بخفة لأستمع إلى المحادثة: «يا شيخ حمزة لا بدّ من العمل بسرعة فيما يخصّ ودّ والأطفال الآخرين، حيث إنَّ لي أعواناً في وزارة الداخلية قد أبلغوني بما لا يسرُّ.. لقد انتشروا في كل مكان، والسبب الرئيسي هو الطفلة ودّ ومعارف والدها في وزارة الداخلية، وأظنّ أنّ اقترابهم من المنطقة بات قريباً».. ساد سكوت لثوانٍ معدودة ثم نطق الشيخ (حمزة): «يا أبا صالح، لا أستطيع أن أفعلها

الآن وذلك بسبب النقص في أدوات التقطيع، كما أنَّ صحة الطفلة ليست على ما يرام ومن الممكن أن نفقدها!، أنتَ تريد أن تضرب والدها في مقتل وقد أدَّينا المهمة التي طلبتَها واستلمنا حقّنا.. لكن في المقابل كان الاتفاق على أن نحافظ على الطفلة وذلك لاستثمارها من خلال التسول، الذي وعدتكَ مسبقاً أنّه سوف يكون خارج نطاق الحرم المكي».

انتقلتُ إلى الأبواب الأخرى لأستمع إلى أنين مكبوت خلف إحداها، فتحتُ الباب بهدوء لأنظر بين أركانها، ومن خلال فرجة صغيرة وجدتُ مستشفى بأكمله وليس غرفة، رأيتُ أدوات معلّقة على الحوائط التي كانت عبارة عن سيراميك أبيض ملطخ بذرات الدماء، وطاولات مخصصة للعمليات، وهناك براميل نحاسية مثقوبة في أماكن متفرقة يصدر الأنين منها.. شعرت بحركة فأغلقتُ الباب وجلستُ على الأرض وأنا أمسك بطني بسرعة.

لم يكلمني أحد، فنظرتُ إلى مصدر الصوت لأجد غُلماناً صغاراً، وهم يمسكون المكانس ويكنسون الغرف الواحدة تلو الأخرى، لكنْ لكل واحد منهم يد واحدة. أكملتُ طريقي إلى غرفة المجلس الأولى، لكن قبل دخولي فُتح الباب ليخرج رجل في قمة الأناقة مرتدياً الثوب ومسدولَ الشماغ (اللباس الوطني)، ولمحتُ في ساعده ساعته الرولكس البراقة، وما إن وقعت عينه في عيني حتى رجع إلى الداخل وأغلق الباب ودلفتُ بدوري إلى المجلس.

دخلت (الفتاة) بكامل غضبها: أين ذهبتَ؟ لقد بحثتُ عنكَ في كل مكان!، (يوسف): انتهيتُ من دورة المياه وانتظرتكِ طويلاً بجانبها،

وبعدها قررتُ أن أرجع إلى المجلس.. (الفتاة): هيا، لقد حان موعدكم للقاء صاحب البركات.

في الليلة ذاتها وبعد ساعات من اللقاء، كنتُ في مجلس (فواز) أنتظر، ولم يطُل انتظاري حيث دخل عليّ صاحب المكان وخلفه ثلاثة رجال ومن بينهم (رئيسنا المباشر): أهلاً بالمحقق يوسف، نريد أن نسمع منكَ ما حدث بالتفصيل، فكلّ حرف من قصتكَ ذو أهمية قصوى، والسبب يعود إلى عبقريتكَ في الوصول إلى هذا الدجَّال، إذ لم يستطع أيّ منا أن يفعلها لسنوات.

(يوسف) في حالة ذهول ممزوجة بالخجل، عليها قليل من بهارات الفخر.

بدأتُ بسرد ما حدث إلى أن وصلتُ إلى اللقاء مع صاحب البركات: دخلنا عليه وقد كان غارقاً في جلسته الروحانية، والبخور ينتشر ويتطاير من حوله في غرفته شبه المظلمة إلا من الشمعدانات التي تسبح بها فتائل بالشمع المُذاب. كانَ يلبس ثوباً أسود فضفاضاً، عيناه مغلقتان سوداوان بسبب الكحل الذي صُبغ حولها، لحيته رمادية لزجة كثّة طويلة في أماكن معينة، وقصيرة في أماكن أخرى، لكنّها في المقابل متناسقة مع بشرته شديدة السُمرة. بانَ على شعره الصَلع ما عدا شعيرات لولبية ما زالت متمسكة بجذورها، وهناك همهمة تصدر بصوت قادم من الجوف رغم فمه المغلق.

تابعتُ حديثي: لم تهزّني هذه المسرحية التي اعتدتُ على رؤيتها خصوصاً عند معشر الدجَّالين، حيث إنّهم يُبهرون القادمين بالانطباع

الأول الذي يُرهَب به الزوار، جلستُ وأنا أتلوّى من ألم بطني. فتحَ صاحب البركات جزءاً من عينه ونظر إليّ، فتكلّمت (الفتاة): اشرح علّتكَ للشيخ، فبدأتُ بالأعراض التي أعاني منها وبالعلاجات التي تجرّعتُها دون فائدة تُذكر، وختمتُها برجاء حار مع القليل من الدموع بأن يُسكّن ألمي ويعالج مرضي.

هدوء.. عادَ (صاحب البركات) إلى الهمهمة، ثم قام بتحريك وجهه يميناً ويساراً ببطء، ففتح فمه ليسحب أكبر كمية هواء ويكتمه في صدره إلى أن أصبح كالبالون الذي سوف ينثر قطعه المطاطية بعد الانفجار في أي لحظة، فتح فمه ليخبرني: أتباعي الصالحون أبلغوني أنَّ بكَ علة، وهذه العلة ليست من داء، ولا علاج طبي أو شعبي لها، علتكَ يا بُني هي تجرعكَ لسحر العشق، هناك من يريدكَ أن تهيم به عشقاً، وقد ارتويتَ منه حتى الثمالة، والعلاج متوفر في جعبتي فلا يبطل السحر إلا السحر، لكنه سيكلّفكَ الكثير.

(يوسف): «لكَ ما طلبتَ، لكن أرجوك عالجني في القريب العاجل، فهذا المرض أو السحر كما شخّصته لي يكاد أن يفتك بي». الشيخ (حمزة): «تعالَ إليّ بعد يومين في مكاني هذا وفي مثل هذا الوقت على أن تكون روحكَ خفيفة وتحمل في جعبتكَ عشرة آلاف ريال»، (يوسف): اتفقنا. وأنا في طريق خروجي سألتُ الفتاة، ماذا يعني الشيخ بالروح الخفيفة؟، (الفتاة): عليكَ بالصيام ما عدا الماء.

وهذا كل ما حدث بالتفصيل. التفتَ (الرئيس) إلى زميلي وقال: «أحضر الجهاز اللوحي من السيارة». وبعد دقائق تقدّم زميلنا وفي يده «آي باد» خاص بمركز التحقيقات ومربوط بالنظام الداخلي،

فتحه الرئيس بكلمة السر الخاصة. وبدأ باستخراج بعض الصور، عرض عليّ مجموعة كبيرة من الصور التي استهلكت من وقتنا ساعات، إلى أن استقرينا على صورة للمُكنى بأبي صالح، والذي اتضح لنا أنَّه المنافس الأكبر لتاجر الفنادق، ولم يتبقَّ علينا إلا الحصول على إذن من النيابة العامة لكي تتم مصادرة هواتفه، لإثبات تهمة الاختطاف عليه.

وفي اليوم التالي وردني اتصال من فواز الذي أخبرني على الفور بالحضور إلى مركز التحقيقات، فلبيتُ النداء، وعندما دخلت وجدتُ المجموعة إياها من عناصر الأمن وأفرادها جالسون في غرفة (فواز): أهلاً بكَ يا محققنا الماهر، نريد منكَ الآن ملازمة المركز، وألا تخرج إلّا للضرورة القصوى، حيث إنّنا قد زرنا شركة أبي صالح وواجهناه بما لدينا، والغريب في الموضوع هو إصراره على الإنكار مع ترديد جملته المشهورة: «لا دليل لديكم على ادعائكم الباطل»، فأخبرناه أنّ هناك مُخبِراً شاهدكَ وسمع محادثتكَ مع الدجَّال حمزة، وما هي إلا ساعات ونستلم أذن النيابة العامة، لكي ترى بأم عينكَ كيف ستسقط أنتَ وأعوانكَ، ونعتقد أنَّهم عرفوا من هو مخبرنا الذي اندسَّ بينهم، ونحن نريد لكَ السلامة من شرهم، وزيارتنا تلك كانت بهدف إدخال الخوف إلى نفوسهم، لعلَّها تجبرهم على اتخاذ قرارات خاطئة قبل صدور إذن النيابة.

وأثناء نقاشنا وردنا اتصال من إدارة الحرم المكي، ممّا جعلنا نخرج على عجل متناسين التحذير بعدم خروجي لكي نصل في أقرب وقت ممكن، حيث إنَّ صلاة العصر قد دنا وقتها وبذلك سوف تُغلق

الشوارع بسبب الازدحام المروري. وبعد مساعدة قوى الشرطة في فتح الممرات الخاصة بسيارات الأمن تمَّ الوصول إلى الحرم المكي ومنه إلى مركز الإدارة.

دخلنا وكانت المفاجأة التي أذهلتنا، حيث وجدنا المسعفين متحلّقين حول كتلة من اللحم ملتحفة ببطانية ثقيلة، اقتربنا لنتأكد من سلامة نظرنا، فإذا هي المخطوفة «ودّ»، وهناك مَن يقيس علاماتها الحيوية، وآخر يُدلّك كتفيها لكي تدفأ، كانت شاحبة، لزجة، مرتجفة من البرد بشفتين زرقاوين رغم أنّ الحرارة كانت طبيعية في الغرفة.

******

سكتَ يوسف مدة طويلة، ليقفز (سالم) ملوحاً مقابل وجهه الذي ذهب إلى عالم آخر: ماذا حدث بعد ذلك، هل تمت مداهمة أبي صالح وصاحب البركات؟، لا تقل لي أنَّ هذه نهاية قصتك!، (سعود): إذا كانت هذه هي النهاية، سوف نربط يديك وقدميك ونرميك في البحر ولا أسفَ عليكَ، (يوسف) مع ابتسامة: ما يهمّ من القصة أنَّ الفتاة «ودّ» رجعت إلى أهلها.

(خالد): سعود أين تضعون الحبال؟، (يوسف) مقهقهاً: سوف أكمل، سوف أكمل..

****

(فواز) وهو ينظر إلى مدير الحرم المكي: كيف؟، (المدير): هكذا.. وجدناها في جوف الصحن تبكي وحيدة، وعندما اقتربنا لسؤالها

عن أهلها تمَّ التعرف عليها مباشرة من الصور المنتشرة لها رغم أنَّها مختلفة قليلاً عن الصور بسبب حالها كما ترى، (فواز): هل راجعتم التسجيلات؟، (المدير): سوف تتم مراجعتها معكم إذا أحببتَ أن نبدأ الآن، لكن يجب أن يتم تحويل ودّ إلى المستشفى حيث إنّ حرارتها ٣٩ درجة.

بالفعل ذهبت الفتاة مع المسعفين، وفي المقابل ذهب معهم رئيس المحققين ومن سيارة الإسعاف تواصلَ مع والد الفتاة، بينما نحن ذهبنا إلى غرفة التحكم للنظر إلى التسجيلات. (يوسف): أولاً كاميرا صحن الحرم للنظر إلى وضع الفتاة في الوقت الذي وجدتموها فيه، وبالفعل كما قال مدير الحرم فإنّ ما نراه الآن مطابق لما حكاه بالضبط، فتمَّ استخراج جميع التسجيلات للحرم المكي كاملاً لمراجعتها على مَهل. مرّ من الوقت سويعات حتى عاد (رئيس التحقيق) ليبلغنا: والدا الفتاة معها في المشفى، وقد حاولتُ أن ألتقط بعض الجُمل منها التي قد تفيدنا في تحقيقنا، تقول ودّ إنَّها كانت في مكان تنبعث منه رائحة المعقمات أي أنّه كالمستشفيات، لكنّ ما يفيدنا في التحقيق هو الربط ما بين تقرير يوسف والمكان الذي كانت فيه ودّ.

تابعَ (الرئيس) حديثه: أخبرتنا ودّ أنّها كانت وسط برميل مثقوب في أماكن متفرقة، حيث إنّها وُضِعت وسط بركة من الماء الذي اختلط ببولها على مر الأيام، وهذا ما سبب لها الخلل في حرارة جسدها، وهناك المزيد.. فـ «ودّ» لم تكن وحدها، هناك الكثير الكثير من البراميل بجانبها وفي غُرف أخرى مثلها.

(فواز) وهو يستمع إلى كل كلمة وعيناه مثبتتان على شاشة عرض التسجيلات: هناك.. لقد بيّنت التسجيلات دخول فتاة ومعها ودّ إلى صحن الحرم، وقد جلست تقرأ القرآن لمدة طويلة وودّ إلى جانبها في حالة من الوهن قد بان على محيَّاها، وما إن صدحَ في الأرجاء أذان إقامة صلاة العصر حتى تركت تلك الفتاة ودّ في مكانها وهمّت بالمغادرة.

(يوسف): وهذه القطعة الأخيرة من الأحجية، البراميل موجودة في منزل الدجَّال حمزة، أما أبو صالح فبعد أن أرعبته زيارتكم أمر أعوانه بإلغاء العملية خوفاً من الوصول إليه، والفتاة التي دخلت الحرم مع ودّ هي ذاتها مَن فتحت لنا الباب، ورغم أنَّها كانت مستورة ولا يظهر منها شيء إلا أنَّ لديها عرجاً خفيفاً واضحاً في خطواتها.

حملَ رئيس التحقيقات هاتفه مخاطباً النيابة العامة، ليستعجل إصدار أمر التفتيش في حق أبي صالح وحمزة الدجَّال، وبالفعل تمّ استلام الطلب بالسرعة القصوى عن طريق إرساله إلكترونياً إلى هاتفه، وبالتالي تمت مخاطبة قوة المداهمة من عناصر الشرطة لاقتحام عقر دار الدجَّال، وقوة مساندة أخرى للدخول عنوة إلى شركة أبي صالح.

همّ الرئيس بالذهاب إلى أبي صالح الذي ثبت عليه بالدليل القاطع ترتيبه لاختطاف ودّ انتقاماً من والدها وكسراً لمنافسة أبي ودّ له، وذلك من خلال الاطلاع على المحادثات التي تمت بينه وبين الدجَّال عبر تطبيقات التواصل الاجتماعي، كما أنَّ هناك تحويلات مالية على فترات متقطعة من حساباته إلى حسابات الدجَّال.

قمتُ مع فواز باقتحام منزل الدجَّال الذي فرّ قبل أن نصل إليه تاركاً خلفه الجميع، ومن ضمنهم الفتاة التي اتَّضح فيما بعد أنَّها ابنته، والتي اعترفتْ بكل شيء في حينه.. أما المفاجأة الصاعقة فكانت عدد الأطفال الذين وجدناهم في البراميل، وفي الغُرف الأخرى التي حوَتْ بين جدرانها «المبتورين» بملابسهم الرثة، وما يُدمي القلب حقاً هو أنَّنا عندما دخلنا إليهم وتسلّل النور إلى وجوههم لم يطلبوا غير الماء والطعام، فقد كان أولئك الأشرار يزوِّدونهم بحصة واحدة يومياً من الطعام، كي تظل أجسادهم هزيلة.

تمَّ القبض على جميع معاونيهم ونشر بيانات من لاذ بالفرار ومن بينهم الدجَّال حمزة، على أن يتم القبض عليهم محلياً أو دولياً وإخضاعهم إلى المحاكمة التي يستحقون، وبذلك أمرت السلطات العليا بإجراء عملية التطهير العظمى لمكة المكرمة استناداً إلى هذا التحقيق الأخير الذي قصمَ ظهر البعير الفاسد.

(يوسف) وسط نظرات الإعجاب من مُرافقيه: وبذلك انتهت حكايتي التي قد صقلت نفسي كإنسان قبل أن تصقل موهبتي المهنية وتقرِّبني من الله أكثر بعد إتمام مناسك الحج. وكلمتي الأخيرة لكم يا أحباب: إذا زرتَ الحرم في يوم من الأيام، اذهبْ لتُنزل الذنوب الثِقال عن منكبيك وتعبَّد ربكَ وكأنَّكَ في الدقائق الأخيرة من حياتكَ، لكن لا تغفلْ عن فلذات كبدكَ، فهناك من يتربص بهم شراً وخصوصاً «مافيا الحرم».

القصة الثالثة يرويها

«سالم»

(جزيرة الخيمة الحمراء)

ليس كلّ من يدخل القبر بميت، فمنهم من يُخرج الموتى إلى الحياة..

اقتربْ لا تخفْ، لا نريد بكَ شراً، بل نريد منكَ أن تنقذنا من البلاء الدائم، من الظلام الحالك، من القبور الليلية، من صفير الريح، من احتكاك الأغصان المتيبّسة، من دهاليز العقل بسوادها الدامس، من حديث النفس المؤلم.. لا تهرب أرجوك!، بل اقترب ولا تخف.. لقد سمعنا هذا الصوت القادم من المنزل الذي عبرنا دهاليزه منذ لحظات، وقد ارتسمت النجوم الخماسية على الحوائط الخارجية بلون الدم، هل تعتقد أنَّنا سوف نقترب؟!

******

أنظرُ إلى الشاشة المثبتة على ظهر المقعد الذي أمامي وهو يعرض الكاميرا الأمامية للطائرة، لأجد فارس السيوف الوهاجة يلوِّح بها يمنةً ويسرة، وكأنَّ قرصان الفضاء الهائم بين دروب حرب النجوم(5) قد استقر في أرضنا وهو يأمرنا بالتوقف، وإلّا ستكون هذه نهايتنا بالضربة القاضية. توقفت الطائرة حسب أوامر فارس النجوم.. أعني إرشادات موظف الملاحة، وقفنا في ممر الطائرة رغم تحذيرات الكابتن، الذي يعلم مسبقاً أنّنا لن نرضخ لتعليماته

باستمرارنا في الجلوس مع ربط الأحزمة، وهو بالمقابل يردّ انتقامه منا بطريقته الخاصة وذلك بالضغط على المكابح من دون الحاجة إلى ذلك.

بعد ما يقارب الساعة تم الانتهاء من إجراءات مطار دبي الدولي، والخروج إلى لهيب الشمس الحارقة، لأجد ابنَي خالَتي «عبيد» و «حامد» في انتظاري مع لوحة كبيرة كُتب عليها اسمي مع الكثير من قلوب الحب المنتشرة، وذلك ليس حباً بشخصي الكريم، لكن بسبب حسّ الكوميديا الذي يمتازان به، متعمّدَين إحراجي.

أوصلاني إلى المنزل ودخلا معي ليسلما على والدتي التي منذ أن غادر والدي الحياة الدنيا راحلاً إلى الرفيق الأعلى باتَ البيت بل الكويت كلها بالنسبة إليها ذكرى مؤلمة!، ففي حنايا كل زاوية من زوايا المنزل توجد ذكرى لوالدي، وفي كل بقعة تزورها من مرافق الكويت تتذكر ابتسامة محيَّاه أو شقاوة مَزحه معها، أدَّى ذلك الفقد إلى اتخاذها قراراً بالرحيل من الكويت والرجوع إلى مسقط رأسها في إمارة الشارقة في دولة الإمارات، حيث إنّها تملك منزلاً بل عدة منازل بسبب عائلتها الكبيرة التي تقطن حيّاً بأكمله.

أخذتني في حضنها رغم أنَّ يديها مليئتان بالحناء، وقد لفّتهما بالخرق وكأنّها سوف تنزل إلى حلبة المصارعة. كم أحبها وأعشق أن أغيظها بمزحي الذي ورثتهُ أباً عن جد!، لأمسك قبضتها وأهيم بها على وجهي ثم أسقط أرضاً بالضربة القاضية. لكنَّ هذه الحركة الكوميدية لها سبب وجيه يا سادة، فقد اشتقتُ إلى تقبيل طريقي إلى الجنة، فطبعتُ قبلة على قدمها التي طالما تعبتْ كي أكون

سعيداً، فضربتني على رأسي بكل حنان، فوقفتُ منتصباً لكي تقبّل وجنتي.

سلّم ابْنَا خالتَي على والدتي، فقال (عبيد) وهو يتوجه إلى بوابة الخروج: اليوم إجازة يا بن الخالة، تجهّز غداً الساعة الرابعة عصراً، لدينا عمل يجب أن نُنجزه، ثم غمزَ بعينه دلالةً على العمل النبيل الذي ينتظرنا لإنجازه على أحرّ من الجمر.

في صباح يوم جديد فتحتُ عيني فوجدتُ يداً حمراء مقابل وجهي، وصوتَ حرف «السين» المتكرر «س.. س.. س.. س» لينكتم صوتي وسط حنجرتي التي تأبى الصراخ ويأبى معها الأكسجين المرور إلى صدري. ما تحرَّك وقتها فقط هو عيني التي كادت أن تغادر المحجر معلّقة بعصبها، وعندما جمّع عقلي الصور من حولي اتضحت الرؤية.

رأيتُ يد أمي المصبوغة بالحناء وهي تلوح بها في الهواء المحيط برأسي وتقرأ القرآن، وكأنّ هناك حرباً شعواء بينها وبين المارد الذي تربَّع على رأسي. (سالم): «أمي، صباح الخير». أمّا (أم سالم) فما زالت تلوح: س.. س.. س.. س!

اغتسلتُ ثم نزلتُ إلى الطابق الثاني لأجد طاولة الطعام التي احتوت على وليمة يتوسّطها لهيب شمعة تتوهّج تحت إبريق تنبعث منه رائحة الكرك(6). (سالم): هل هناك ضيوف قادمون؟. (أم سالم): «لا يا حبيبي هذا الفطور لكَ»، (سالم) بابتسامة ماكرة وهو يكدس الطعام خلف وجنتيه: أمي لماذا أتعبتِ نفسكِ.

دقت ساعة الرحيل، صدح هاتفي معلناً وصول رفيقَيّ السوء، خرجتُ من المنزل بعد قبلة طبعتُها على رأس والدتي، التي أغلقت أنفها بسبب قوة العطر الذي استحممتُ به منذ لحظات.. ركبتُ السيارة وانطلقنا إلى وجهتنا.

في البداية جلسنا في كافيه لاحتساء القهوة والنظر إلى أحوال العذارى، وبين ثانية وأخرى كانت هواتفنا ترسل الطنين الذي تتراقص معه قلوبنا، معلنة عن وصول كود برنامج التواصل الاجتماعي «سناب جات»، عن طريق خدمة تطبيق Air Drop الخاص بجهاز الآي فون.

انتقلنا إلى أحد المطاعم الفاخرة المختصّة بتقديم المأكولات البحرية، لتناول وجبة الغداء المتأخرة برفقة بعض الفتيات اللاتي أبينَ إلّا أن يتفضّلن علينا بكرم الضيافة بمناسبة وصولي. (سالم) هامساً لحامد: «هل ستكون سهرتنا اليوم برفقة هؤلاء الفتيات أم أنّ هناك مجموعة أخرى؟»، (حامد): «بل إنّ هناك شيئاً جديداً.. لا تقلق»، (سالم): أين المكان؟، (حامد): «في منزلي، فوالداي قد غادرا لزيارة أصدقائهما في إمارة أبو ظبي، وسوف يمضيان الليلة في ضيافتهم».

شكروا الفتيات على حسن الضيافة، وتوجّهوا إلى أحد الفنادق الفخمة في إمارة دبي من دون النزول من السيارة. أخذَ عبيد يعبث بهاتفه في ضيق. (حامد): ما بكَ؟، (عبيد): «المجموعة سوف تتأخر قليلاً لأنّ إحداهن قد أصابتها وعكة صحية»، (حامد): «قُلْ لهنّ أن ينزلن في الحال ويتركن صاحبتهن المريضة، لا ضرر إن كُنّ أربعاً بدلاً

من خمس».

نزلت الفتيات وركبنَ السيارة بكامل زينتهن مرتديات ملابس السهرة، انطلقنَ إلى منزل حامد الذي أعدّ العدة هناك وجهّز السماعات المُضخّمة للصوت بجانب المسبح الذي توهَّج حوضه بالأنوار المائية، بدأت حفلتهم بتغيير الملابس للنزول إلى المسبح مع أصوات الأغاني الصاخبة، لكي تكتم صوت اللهو الجاري في الأرجاء.

ودعتُهم قبل بزوغ نور الفجر لأرحل إلى منزلي القريب منهم مشياً على الأقدام، دخلتُ المنزل بهدوء وقبل الذهاب إلى غرفتي في الطابق الثاني، وجدتُ ورقة على طاولة الطعام «تناول عشاءكَ، أحبكَ». ابتسمتُ لتصرفات قد تكون بسيطة لكنَّ لها الأثر العميق في نفوسنا، فهي تبعث على الرضا والراحة النفسية، خصوصاً عندما تنظر إلى كل هذا الحب الذي لا يتطلب أن يكون له مقابل، إنّه حب خالٍ من المصالح.

في اليوم التالي وفي نفس وقت اللقاء مع صاحبَي السوء، جلسنا في أحد اليخوت المستأجرة مع كامل العدة في انتظار القبطان الذي سوف يجوب البحار، ونحن خارج نطاق التغطية من شدة المرح المتوقع. حضرَ القبطان كعادته في الوقت الذي حدده مسبقاً، وكان علينا السمع والطاعة فمِن دونه لا توجد رحلة، لكن الذي تأخّر هو المرح بعينه، نصفنا الثاني!

انتظرنا لمدة تقارب الساعة إلى أن وصلت سيارة الأجرة إلى المرفأ، ونزلت منها مجموعة من الفتيات متجهات إلى اليخت الذي

وصفهُ لهنَّ عبيد مسبقاً، وبينما كُنّ في طريقهن إلينا همستُ لحامد: ذات الشعر الأحمر محجوزة، لينظر (حامد) إليّ مبتسماً في براءة: لكَ ذلك.

تحرّك اليخت إلى عرض البحر وبدأ الصخب يعلو في أنحائه، إلى أن وصل إلى نقطة مَخفّية عن الأنظار لنأخذ راحتنا في مرحنا، أخذتُ الحمراء لتسبح معي في حوض السباحة في الطابق الأخير من اليخت على أن نكون وحدنا.

بدأنا المحادثات باللغة الإنجليزية التي سوف تُذيب الجليد فيما بعد. (سالم): «هل لي أن أتشرّف بمعرفة اسمكِ؟»، (الفتاة): «اسمي أولغا، وأظنُّ أنّكَ سالم»، (سالم) مع ابتسامة: «نعم بالتأكيد، يبدو أنَّ عبيد قد أخبركن بالكثير»، (أولغا): «يجب عليه إبلاغ مديرتنا بجميع التفاصيل وكذلك بالمكان الذي سوف نبحر إليه، وعليه كذلك أن يشاركها في برنامج الموقع المباشر لمعرفة مكاننا على الدوام»، (سالم): «يبدو أنّ مديرتكم تعرف كيفية عملها جيداً.. يعجبني شعركِ، هل هذا لونه الطبيعي؟»، سكتت (أولغا) برهة لتنطق وهي تمدّ قدميها في الحوض: «أحرصُ على عدم الإجابة عن هذا السؤال، لكنّكَ تبدو لي رجلاً مسالماً لا تنوي أذيَّتنا، شعري الأصلي أشقر، فقد صبغته مع حاجبيّ بغرض السلامة».

(سالم): «يبدو أنّ في جعبتكِ حكاية، هاتِي ما عندكِ يا شهرزاد»، (أولغا) مع ابتسامة تجاري إطراءه: «نعم هناك حكاية تعتبر من حكايات الرعب التي شغلت الوسط الذي نعمل فيه، لقد هجرنا بلادنا طلباً للرزق، لكنّنا لم نجد العمل الذي نربح من خلاله ما كنا نتوقعه،

فلا مال يسد الرمق ولا معاملة حسنة من مرؤوسينا، ومن خلال صديقتي تعرفتُ على المديرة التي أخذتني تحت ظلها لكي أعمل هذا العمل الذي أقضي من خلاله الوقت معكَ الآن، لكنّ هناك مَن يُحسن المعاملة وهناك مَن يُسيئها.. وهنا تبدأ حكاية صبغ شعري.

استأنفت (أولغا) حديثها: ومن حالات سوء المعاملة، تكررت حالات ذهاب زميلاتي لقضاء ليالٍ حمراء من دون الرجوع مرة أخرى، وكأنَّهن مكعَّب سكر اندمجت ذراته مع الماء. وتمَّ إبلاغ السلطات باختفائهنّ، وبالفعل يتمّ البحث والتقصي عنهن وخاصة في المنافذ الحدودية للحصول على خيط للوصول إليهن، لكن دون جدوى!.

(سالم): لكنّكِ ذكرتِ مسبقاً كلمة «زميلاتي»، للإشارة إليهن، فكم عدد الفتيات اللواتي تتكلمين عنهنّ؟، (أولغا): «عددهنّ ١٢ بنتاً، وجميعهنّ شقراوات وعيونهن زرقاء»، (سالم): هل عيناكِ زرقاوان، ولونُ شعركِ الأصلي أشقر؟، (أولغا): «نعم، بالفعل.. فبعد تكرّر ظاهرة الاختفاء اتخذت الشقراوات منهج التخفي من خلال العدسات اللاصقة وصبغ الشعر، أو وضع الباروكة التي تُخفي لون شعرهنَّ الأصلي».

حاولتُ تغيير الأجواء التي انقلبت إلى حزن بتغيير دفة الحديث إلى أمور خاصة برحلات السفر لكي تمر الليلة بسلام، وهكذا عمّت الأجواء السعيدة نفوس الجميع لتعلو الأغاني الصاخبة، فرقصت القروش حول يختنا ورقصنا نحن معها.

لقد دنا وقت الفجر وبدأ الهاتف يصدح ليظهر على الشاشة «نبع

الحنان» يتصل بكَ، (سالم): «يجب أن نعود الآن إلى المرسى، عليّ الذهاب إلى والدتي، فقد بدأت تقلق.. وكما تعرفون عندما تقلق سوف تخاطب جميع معارفها للسؤال عن مكاني، وممكن أن يصل الموضوع إلى إبلاغ السلطات العليا، فتقع الطامة الكبرى على رؤوسنا جميعاً».

وبالفعل وصلَ اليخت في وقت مناسب، فخاطبتُ (والدتي) التي خرج صوتها من سماعات الهاتف ولطمَني على وجهي، وعندما دخلتُ إلى المنزل وجدتُها بانتظاري بوجه ارتسمت عليه ملامح الغضب العارم، لكن ما إن رأت أنّ جميع أطرافي في مكانها حتى ابتسمت وقالت: «هيا تناولْ عشاءكَ واخلُد إلى النوم، ثم غادرت إلى غرفتها كي ترتاح».

ذهبتُ لأغتسل ووضعتُ رأسي على وسادتي فانشغل عقلي بقصة اختفاء الشقراوات، هل هي كِذبة من أولغا لكي تلفت انتباهي إليها أم أنّ هناك بالفعل قصصاً لا يعرفها العامة، ممزوجة بالغموض الخاص بعالم هوليوود السينمائي؟ قد نحتاج إلى المحقق (شارلوك هولمز) لحل هذا اللغز!

في اليوم الثالث، أقلقت مضجعي ضربات غاضبة كادت أن تكسر باب غرفتي، لأُخرج رأسي من اللحاف وأنظر إلى شيطانَي الإنس اللذين وقفا أمامي بوجهيهما المتجهمَين. (عبيد): الساعة الآن الرابعة وأنتَ حتى الآن غارق في عالم الأحلام، هيا.. علينا الخروج الآن، اغتسلْ وسوف ننتظركَ في غرفة المعيشة. (حامد) بعد أن ضربني بقوة على وجهي بالوسادة: لا تتأخّرا!

بعد نصف ساعة، نزلتُ على السلالم المؤدية إلى غرفة المعيشة لأجد ابنَي خالتَي في انتظاري، وهما يُسلّمان على خالتهما «أم سالم، ويخبرانها بخطة رحلتنا لهذا اليوم، والتي لم تكن تشبه الحقيقة بتاتاً. خرجنا إلى كافيه وأخذ عبيد ينظر إلى حامد والأخير ينظر إلى هاتفه، ثمّ يمطّ شفتيه علامةً على عدم الرضا. طالت مدة الجلوس، (سالم): هل لي أن أعرف ماذا تُحيكان؟ ولماذا إلى الآن ما نزال ماكثين في مكاننا ولم نتقدّم خطوة واحدة من مرح اليوم؟، (عبيد) بعد النظر إلى وجه حامد: للأسف الشديد هناك احتمال كبير بألّا يكون هناك مرح اليوم! (سالم) وقد بدأت علامات الغضب ترتسم على وجهه: وما الأسباب؟، (حامد): أهلنا موجودون في منازلهم، ووالدتك كذلك، واليخت محجوز لمدة أسبوع، وختاماً صديقنا موظف الاستقبال في الفندق الفخم، كان هو الأمل الأخير، (سالم): هل أخبركما أنّه لا يستطيع أن يُؤمّن لنا الجناح المعتاد؟، (عبيد): بالضبط!

(سالم): وماذا عن البضاعة؟، (حامد): إنّها جاهزة وقد استلمتْ مبلغ الليلة، (سالم): وما الحل؟. سكتَ الجميع بوجوه مليئة بعلامات الاستفهام والحزن، الذي بدأ يُعدي جميع الطاولات المحيطة والنادل كذلك حتى وصل إلى كامل المقهى، حتى من يمر بجانبهم يشعر بأنهم ينشرون طاقة سلبية وكأنّهم في انتظار تقديم واجب العزاء. بعد انقضاء ساعة، انتقل الثلاثة إلى السيارة وراحوا يجوبون الطرقات لعلها ترشدهم إلى حلّ.

صاحَ (حامد) بكامل صوته الجهوري: «وجدتُها!»، (سالم): «كاد

قلبي أن يتوقّف»، «ماذا وجدت؟»، (حامد): «المكان... عبيد تواصلَ مع المديرة، وأخبرها أنّنا في الطريق لاستلام الفتيات». بعد ٢٠ دقيقة كانت سيارتنا تحت الفندق الذي تقيم فيه الفتيات.

التقى الجمعان وهمّوا بالمغادرة إلى الوجهة غير المعلومة للجميع، بمَن فيهم المديرة التي خالفت قوانين عملها بسبب علاقتها الجيدة بزَبونيْها حامد وعبيد. (عبيد): «الآن الجميع في السيارة، أين وجهتنا يا حامد؟» (حامد): «وجهتي إمارة رأس الخيمة»، (عبيد) وقد بدت علامات الاستغراب على محياه: «وماذا بعد رأس الخيمة؟»، (حامد): «الجزيرة الحمراء».

(عبيد): «هل جننتَ؟، هل تريد أن نقيم حفلتنا الليلية في عقر دار الشيطان؟»، (سالم): «لو كانت الفتيات تفهمنَ لغتنا لفتحنَ الأبواب ورمينَ أنفسهن خارجها غير عابئات بالسرعة التي نسير بها، أرجو أن يُفهمني أحدكما قصة هذه الجزيرة؟»، (حامد): الجزيرة الحمراء، مدينة من المدن التراثية التي بُنيت قبل ٤٠٠ سنة بطريقة بدائية جميلة، تحوي ما يقارب ١٠٠٠ بيت صغير مبنيّ من الحجارة، حواريها متلاصقة، آبارها داخل بعض البيوت وخارجها لخدمة أكثر من منزل، وفيها مبانٍ حكومية وعيادة لمعالجة المرضى.

أردفَ (حامد) قائلاً: إلى أن حدثت هجرة قبل ٣٠ سنة بهدف الاقتراب من المدن المتحضرة والبنيان الجديد، اتخذت العوائل إمارة أبو ظبي مسكناً جديداً لها، ومع كثرة الانتقال قلّ عدد العوائل التي ما زالت متمسكة بمكانها في «الجزيرة الحمراء». لقد غدت بعض الحواري منازل خاوية من البشر ومليئة بالرهبة، لا يمكن

للقاطنين أن يخرجوا بعد غروب الشمس خوفاً من المجهول، فسكنت الحيوانات الضالة من كلاب وحتى الثعالب منازل المغادرين، وممكن أن تجد الأفاعي بعد ارتفاع درجة الحرارة المُنذر بانتهاء البيات الشتوي.

(حامد): «إلى أن دخل الساكنون الجدد إلى هذه المنازل، ممّا أدى إلى خروج البشر المتبقين من سكان الجزيرة، وانتقالهم إلى الإمارات المتحضرة»، (سالم): «ومن هم السكان الجدد؟»، (عبيد): «يقصد الجن، الذين يتخذون البيوت المهجورة مستقراً لهم»، (سالم): «وهل تريدان الآن أن تُقيما حفلاً صاخباً هناك؟»، (حامد): «نعم»، (سالم): «هل من الممكن أن توقف السيارة لو سمحتَ؟، أريد النزول في الحال»، (حامد): «لا تخف يا صاحبي، فجميع القصص التي تمَّ طرحها تقتصر على سماع أصوات وهمسات هنا وهناك وأعتقد أنّها من فعل الريح»، (عبيد): «بل سمعتُ أنَّ هناك من زارها لتوثيق الخوارق التي تحدث هناك، فآلَ بهم الحال إلى دخول مستشفى الأمراض العقلية من هول ما مروا به، أنا أؤيد سالم»، (حامد): لم أتوقع أنّكما بهذا الضعف، لن أُوقف السيارة وسوف نكمل طريقنا، وللعلم إنّنا على مشارف الجزيرة الآن.

رضخَ الجميع إلى الأمر الواقع مع التزام الصمت الذي يُخبِّئ خلفه الكثير من الخوف من مواجهة المجهول، وكما قيل «الإنسان عدو ما يجهل». دخل حامد بسيارته إلى «الجزيرة الحمراء» بهدوء مع الكثير من الترقب، لأخذ نظرة أولية على المكان واختيار المكان المناسب لإقامة حفلتهم اليومية. حوارٍ خاوية، بيوت مفتوحة الأبواب، كتابات

غريبة على الحوائط، ظلام دامس، وغيوم سترت ضوء القمر.. فتح (حامد) كشافات الإضاءة لتحسين مستوى الرؤية للمسافات القريبة والمحيطة بهم: يبدو أنّ المكان هنا جيد، هيا بنا لننزل ونتفقد المحيط ومن ثم نقيم حفلتنا.

فرشوا بساطهم وجلسوا بجانب كشافات الإضاءة، ثم أشعلوا نارهم وسط مكان جلوسهم ليتراقص اللهب في بؤبؤ أعينهم، وبعد أن اطمأنوا أنّ الوضع آمن بدأ صخب الموسيقى يصدح من سماعات السيارة ويرسل صداه في الأفق.. قررتُ أن أنفرد بإحدى الفتيات لنسير في الأرجاء لكن ليس بعيداً عن مكان جلوس البقية.

كانت أعينُنا مترصدة لأي حركة غريبة من شدة هدوء المكان الذي يُدخل الرهبة إلى النفوس وإن كان الوضع آمناً، ومع ذلك فإنّ صوت الريح يعبر ممرات المنازل وهي تطلق صفيراً يزيد معه معدل دقات القلب، وبينما كنا نمشي بين الأزقة أخذنا ننظر إلى الكلمات والرموز المكتوبة على الحوائط، فقالت (الفتاة) الأجنبية: «أعتقد أنّ تلك الكلمات مكتوبة باللغة اللاتينية التي تُستخدم في أعمال السحر، وليس أي سحر بل السحر الأسود تحديداً».

من الأمور الغريبة التي وقعت أبصارنا عليها، أنَّ بعض البيوت قد احتوت على أقفال خارجية من دون قفل داخلي، وبعضها الآخر يحتوي على بصمة يد باللون الأحمر القاني المخلوط بغبار الزمن، كيف للفرد أن يعيش أجواء مرح في هذا المحيط المرعب؟!

أكملنا مسيرنا ممّا أبعدَنا عن مجلسنا، إلى أن وصلنا إلى بئر فشغّلنا

إضاءة هاتفينا لكسر ظلمة المكان، ألقينا نظرة نحو الهوّة وكما توقعنا لقد كان البئر جافاً، لكن لماذا يحتوي على أسلاك شائكة وُضِعت بطريقة ملتوية وكأنّ القصد منها تعذيب من قُذِف داخله؟!

سمعنا صوتاً غريباً من داخل منزل قريب من البئر، فسقطت قلوبنا أرضاً، فلم نعد نستطيع الرجوع ولا الثبات بسبب تصلُّب أقدامنا. العيون مترقّبة وقطرات الندى تزحف على الجبين. هناك ضوء بسيط جداً، بل ضوءان، إنّه يقترب.. هناك أصوات لأقدام يصحبها احتكاك.. ثعلب مُكشّر عن أنيابه لكن لا ضرر منه، فقد بلغ العطش منه مبلغه حتى خارت قواه فزحف زحفاً إلينا، وضعنا من أجله القليل من الماء في قربة مكسورة، ثم ذهبنا مع الكثير من الحمد والشكر لله على السلامة، ثعلبٌ غلبه الظمأ أرحم من مخلوقات عالم ما وراء الطبيعة.

أكملنا مسيرنا بين الحارات القريبة من مجلسنا، هدأت الموسيقى الصاخبة إلى أن توقفت تماماً، أمسكتُ يدها وبدأنا نغيّر مجرى الحوار لكي ندخل إلى الأجواء الرومانسية في هذا السكون والقمر المستور، مع وجود الخوف في هالتينا والذي زاد من لذة اللقاء.

توقفنا بجانب أحد المنازل، استخدمتُ حائطه لأُسند ظهري ولأُدني الفتاة مني أكثر، وما هي إلا برهة لتدخل ذبذبات اقدام مكتومة قادمة من المنزل ذاته إلى أذنيّ، فانتصبت شعيرات جسدي بأكملها، واقتربت الفتاة أكثر مني ليس رغبةً في حُسني، بل خوفاً ورهبة من المجهول.. ازداد عدد الأقدام الآتية من داخل المنزل!

الغريب أنَّ فضولنا طغى على خوفنا، فكّرنا بالهروب وهذا طبيعي

عند مواجهة المجهول، لكنَّ في المنزل روحاً تسكنه ونريد أن نتبيّن ذلك، وإن لم نفعل فسوف نلوم أنفسنا ما حيينا، شغلتُ كشاف هاتفي ثم سرتُ لإلقاء نظرة سريعة وقد تمسكت الفتاة بذراعي.

كان الباب من الأبواب القديمة المصنوعة من الخشب الثقيل عالي السماكة، يوجد في سقفه الخارجي سلسلة منتهية بقفل مفتوح، دخلته فوجّهت الكشاف في الأنحاء، لا يوجد أحد.. أكملتُ مسيري إلى الداخل، فكان يحتوي على غرفة معيشة وحولها غرف منتشرة، لنتوجّه إلى أول غرفة.

دخلنا ومع دخولنا كان الكشاف يُمشط المحيط، هناك غرفة خاوية رائحتها كريهة جداً، يوجد بها قوارير ماء مبعثرة، لكنَّ هناك حائطاً شدّنا للاقتراب أكثر لأنّه يحتوي على خطوط حُفِرت على الحائط، وليست أي خطوط بل خطوط لعدّ الأيام، فكل ستة خطوط طولية خُتمت بخط عرضي تُبيّن عدد أيام الأسبوع.

وكان عدد الأسابيع المخطوطة ٢٤ أسبوعاً!، سرنا إلى الغرفة المجاورة لنجد فيها بعض الأثاث الذي جار عليه الزمن وقد وُضِع بطريقة مبعثرة في الأرجاء، كراسٍ وكنبات مقلوبة، هناك طاولة مكسورة، وعلى الحوائط الكثير من الكلمات السريانية(7)، ورسومات لرأس الشيطان بقرونه الملتوية، وعلى الحائط المقابل نجوم سداسية محفورة، وتمت تعبئة هذه الحُفر بالدماء التي سالت منها القطرات الجافة بفعل الجاذبية. هممنا بالانتقال إلى الغرف الأخرى لكنَّ ما حدث هنا هو صُلب الحكاية!

قبل خروجنا، سمعنا صوت نحيب قادم من داخل الغرفة ذاتها، بحثنا عن مصدر الصوت ممّا جعلنا نتوغل إلى وسطها، أبعدنا الكنبة من المنتصف ليظهر لنا مربع في الأرض.. كان عبارة عن فتحة خاوية بُنيت مع خرسانة المنزل، قرّبنا الكشاف لننظر إلى العنكبوت المترقبة وسط شباكها، فتبين أنَّ الفتحة عبارة عن مصدر تهوية لغرفة في سرداب المنزل بتصميم غريب، والأغرب من هذا أنّ جميع المنازل لا يوجد فيها سراديب ولا حتى مدخل يوصل إليها!

قرّبتُ الكشاف أكثر لتظهر معالم الغرفة السفلية.. بلمح البصر مرّ أحدهم بسرعة عالية، فكان هذا الإنذار الأخير لاختيار الهروب على الشجاعة، أطلقنا أقدامنا للريح.. لكن عند باب المنزل نطقَ من كان في الأسفل بصوت أنثوي متبوع بالصدى: اقترب لا تخفْ، لا نريد بكَ شراً، بل نريد أن تنقذنا من هذا البلاء الدائم، من الظلام الحالك، من القبور الليلية، من صفير الريح، من احتكاك الأغصان المتيبسة، من دهاليز العقل بسوادها الدامس، من حديث النفس المؤلم.. لا تهرب أرجوك.. اقترب ولا تخف!

بل الهروب هو الاختيار الأنسب في جزيرة الرعب.. الجزيرة الحمراء.. رأونا قادمين إليهم ناثرَين الغبار خلفنا، صرخ (سالم): اتركوا كل شيء، وهيا إلى السيارة بسرعة.. بسرعة!

ركب الجميع وكنتُ أنا خلف عجلة القيادة التي أدرتُها إلى أقصى اليمين لأضغط بقدمي على ذراع الانطلاق إلى آخره فكادت السيارة أن تنقلب، وتطاير الحصى على نوافذ البيوت ليكسرها رغم أنّ بعضها مكسور مسبقاً.

جُلنا بين حارات الجزيرة دون معرفة طريق الخروج، (عبيد): «ماذا هناك؟، هل من الممكن أن يتكلم أحدكم؟!»، (حامد): «يا سالم قلِلْ من السرعة أو على الأقل توقف جانباً لنجد طريقَ الخروج من هنا، والأفضل أن تجعلني أقود السيارة، فحالتكَ غير طبيعية».

توقفتُ وقد فغرتُ فمي وما زال الهواء يأبى أن يدخل إلى رئتيّ، نظرتُ إليهم وأنا أحاول أن أتكلم لكن لا قدرة لي على نطق الحروف، فتكلمت (الفتاة) بتلعثم مع انهمار دموعها السوداء: أش.. أشباح!

وما إن أنهت كلمتها حتى سقطت حصاة على سقف السيارة، هدوء.. علامات تعجب، عيون تنظر إلى السقف بترقب، ثم سقطت أخرى، فسقطت في الختام مجموعة، وكأنَّ هناك مَن يتعمد إرعابنا بمزحة ثقيلة.

(حامد): «سالم انطلق ولا تتوقفْ!»، أكملتُ مسيري ما بين الحارات والجميع يحاولون إعطائي توجيهات للعثور على طريق الخروج، إلى أن بان مخرج الجزيرة لتعبر السيارة ونتنفس الصعداء وتهدأ دقات قلوبنا. لم نخرج من الجزيرة الحمراء بل خرجنا من قعر الجحيم.

بعد نصف الساعة استقر حالنا، فألحّ ابنَا خالتَي على سماع الحكاية، لكنّني أبيتُ أن أتكلّم والتزمتُ الصمت إلى أن وصلنا إلى منزلي، أوقفتُ السيارة ونزلتُ تاركاً الباب مفتوحاً لأدخلَ المنزل مع نظرات الاستغراب من الجميع.

دخلتُ غرفتي ثم أغلقتُ الهاتف ورميتُه بعيداً عني.. لم يُفتح باب الغرفة إلّا للطعام الذي كان بين يديّ والدتي، التي حاولت جاهدةً أن

تسحب من فمي كلمات توضّح لها سبب تبُّدل حالي، لكنها لم تحصل على شيء.. استمر الوضع على هذه الحالة لمدة أسبوع كامل.

طرقات على الباب، لم آذَنْ لأحد بالدخول، لكن رغم ذلك فُتح الباب لتظهر والدتي برفقة ابنَي خالتَي، فأوليتُهما ظهري، همسَ أحدهما لوالدتي بأن تتركنا وحدنا ففعلت.

(عبيد): «جئنا لنطمئنّ عليكَ، إنّكَ لا تجيب على مكالماتنا ولا تريد أن تقابلنا، فبادرنا باقتحام خلوتكَ رغماً عنك»، (حامد): «لقد علِمنا بمجريات الحكاية من الفتاة التي اعتزلت مهنتها، وقررت الرجوع إلى بلدها بعدما رأت من هول ذلك اليوم».

(سالم) وهو في جلسته مولياً ظهره لهما: «لا أريد أن أتكلّم عن الموضوع»، (عبيد): «بل سوف تتكلم لكي نعالج الأمر مع بعض، ما زلنا أخويْكَ ولن نتوانى للحظة عن الوقوف إلى جانبكَ في السراء والضراء، تكلّم الآن قبل أن نلجأ إلى الخطة «ب».

نظر (سالم) إليهما فبدا السواد تحت عينيه وكذلك لحيته المتشابكة وشعره الأشعث: «وما هي خطتكما الثانية؟»، (حامد): «سوف نسحبكَ رغماً عنكَ للخروج ممّا أنتَ فيه، وأول مكان سوف نذهب إليه هو صالون الحلاقة، ليُعيد إلينا أخانا سالم الذي نعرفه».

(سالم): «كما أخبرتْكما الفتاة، إنّ ما حدث لنا في المكان الملعون لا يُصدّقه عقل، هناك أشباح تتحرك في سرداب المنزل، وقد خاطبتنا فتاة مجهولة من نفس المكان، وعندما توقفنا.. هناك من تعمّد إخافتنا برمي الحصيّات، فماذا تريدان أن تعرفا أكثر من الذي

سمعتُماه؟!»

(عبيد): «سمعنا وفهمنا، لكنَّنا الآن نريد منكَ أن تنسى ما حصل وتعيش حياتكَ بشكل طبيعي». (سالم): بل ما سوف يحدث فيما بعد هو الذي سوف يحدّد مصير حياتي إنْ كتبَ لي الله أن أعيش، لابدّ من وضع النقاط على الحروف، وإلّا سوف تلاحقني كوابيس ما حصل، في الحلم واليقظة.

(حامد): «هل لكَ أن توضح لنا ما ترمي إليه؟»، (سالم): «أن نرجع إلى الجزيرة الحمراء ونكشف المستور تحت الأرض!»، بدا الوجوم واضحاً على وجوه الجميع، وكانت (والدتي) خلف الباب تسترق السمع، ففتحت الباب ودخلت لتقول: وأنا مع سالم فيما رمى، عقابكم أنتم الثلاثة فيما بعد، وسيتم في مجلس الأسرة عندما أجتمعُ مع والدتَيْكما!، لكن الآن بعدما سمعتُ الحكاية التي أرقّت ولدي وقلبت حياته رأساً على عقب، أشدّ على يدكَ في هذا القرار لكي تضع الخاتمة فيرتاح بالكَ، فإنَّ ما سمعتُه يختبِئ خلفه سرّ عظيم.

تابعت (والدتي): لكن لن تذهب وحدكَ، يجب أن يرافقكَ شيخ وأحد رجال الشرطة بطريقة غير رسمية، وموضوع هؤلاء اتركه لي.. بقيتُ أستمع إلى أمي التي تحمّست إلى فكرتي أكثر مني وأنا فاغر فمي، أمّا الآخران فلم ينبسا ببنت شفة!.

ركبتُ السيارة خلف المقود ورافقني حامد وعبيد، وبقينا ننتظر حسب أوامر والدتي التي طلبت منا ذلك حتى توقفتْ سيارة خلفنا،

لينزل منها شخصان ويركبان معنا بعد أن ألقيا علينا السلام، ثم عرّفا عن نفسيهما، بدأ الشاب الملتحي المُكنى بـ «معاذ» وكان والده من أبناء عمومة والدتي وهو على معرفة سطحية بكل من حامد وعبيد، والآخر من المباحث ويُكنى بـ «فايز» ابن صديقة والدتي.

بدأنا رحلتنا والشمس تنتقل بين درجات الألوان الحارة المتداخلة بين الحُمرة واللون البرتقالي الهادئ، وخلال الطريق طلب الأعضاء الجدد أن أتلو على مسامعهم القصة بالتفصيل الممل، فساهمَ الحديث المشترك فيما بيننا بشكل كبير في وصولنا إلى مشارف الجزيرة الحمراء، من دون أن نشعر بالوقت ولا بحلول الليل الذي نشر ظلامه في سماء الدنيا.

الآن نحن نعبر مدخل الجزيرة ونتقصّى المكان بأعين تحدق في الأفق لتحديد مكان البيت الذي يحمل بين طياته المجهول، فدخلنا بين الحارات والسيارة تسير بأقل سرعة، خرج ثعلب من أحد المنازل ثم توقّف قبالة السيارة، نظر إلينا بعينيه البلّوريتين ثم أكملَ طريقه، وما زال الشيخ معاذ يتمتم بالآيات القرآنية من دون توقف.

لمحتُ جانب البئر الذي توقّفنا عنده سابقاً، لأخبر الجميع: «لقد اقتربنا»، الشيخ (معاذ): «إنّ هذا المكان قد ابتُلي بلعنة، فقد انتشرت الطلاسم على الحوائط ومنها طلاسم خاصة بالسحر الأسود كفانا الله شرَّهُ. هنا تحوّلت السيارة إلى قفص طيور مُسبِّحة، فبدأ الجميع بالبسملة وبتكرار الأذكار».

ضغطتُ على المكابح بقوة لتتجمد السيارة في مكانها، (حامد):

«هل رأيتموها؟»، الجميع مع ارتجاف الشفاه: «نعم رأيناها، لقد خطف أمامنا طيف لفتاة شقراء تمشي على الهواء بثوبها الأبيض الطويل وبجسدها الهلامي الشفاف، تلمس الأرض بأطراف قدميها لتطير مرة أخرى، لقد خرجتْ من منزل قريب من البئر ودخلتْ إحدى الحارات ثم اختفت في الأفق.

(سالم): «هذه هي العلامة، هذا هو المنزل الذي حدث فيه ما حدث، وهو نفس البيت الذي خرج منه الطيف». قال الشيخ (معاذ): «هيا لنكشف المستور بين طياته. نزلنا جميعنا متسلحين بكلمات الرحمن الرحيم لندخل المنزل، وكان في استقبالنا قزم!».

قزم أشعث الشعر الكثيف، كريه المنظر بأعين جاحظة تكاد أن تسقط من رأسه، فم كبير بأسنان مدببة، أنف مليء بالبثور الكبيرة القابلة للانفجار في أي لحظة، وبطن منتفخ بارز من ملابسه الرثة مقطعة الأطراف، يسند رأسه إلى ركن في غرفة المعيشة. وما إن تلاقت أعيننا حتى همّ راكضاً إلى إحدى الغرف، الشيخ (معاذ): عفريت من الجن!

كادوا أن يعودوا أدراجهم، لكنّ إصراري على كشف المستور ووضع خاتمة لهذا المصاب الجلل جعلهم لي سنداً بدافع الأخوة. أكملنا بعد أن اخترنا الشجاعة على الخوف هذه المرة، بحثنا في أركان المنزل عن عفريت الجن الذي اندمجت ذراته مع الهواء واختفى عن الأنظار.

توجهنا إلى الغرفة ذات الحفرة، أبعدنا الأثاث المتراكم على الأرضية، ثم سلّطنا الإضاءة على الحفرة لاختلاس النظر، لا يوجد

شيء!، نظرنا إلى الأسفل تارة، وإلى وجوه بعضنا بعضاً تارةً أخرى، وقطرات الندى تنبثق من مسام وجوهنا. وبعد ما يقارب ١٥ دقيقة من الترقب، لم نرَ شيئاً، بل استمعنا إليه!

هناك أنين يرسل صداه إلى الأعلى، تكلّم الشيخ (معاذ): «هل هناك أحد في الأسفل؟، هل من أحد يطلب النجدة؟، لكنّ الرد الذي جاء كان عبارة عن ضحكات حادة مجلجلة في الفراغ.

طلبَ فايز حبلاً لكي يربط هاتفه، ثم بدأ يُنزِله إلى الأسفل. وبالمقابل وجّهنا كشافات هواتفنا نحو الفتحة، وظلّ الهاتف معلّقاً في الهواء لمدة من الزمن، ثم سحبه مرة أخرى ليفتح التسجيل. أجرى (فايز) اتصالاً سريعاً: «معكم فاير من وحدة المباحث، يُرجى إرسال دعم بشكل عاجل مصحوب بفريق الإطفاء وسيارة إسعاف إلى الموقع الذي سوف أرسل إحداثياته الآن!»

ما هي إلا دقائق معدودة حتى حدثت زوبعة من الغبار في الأفق، بسبب كمية السيارات التي توقّفت مقابل المنزل، توجّه رئيس فايز إليه مستفسراً عن سبب الاستدعاء، ألقى (فايز) التحية العسكرية، ثم سلّمه الهاتف ليطلع على التسجيل الذي تمَّ التقاطه قبل قليل: «انظر يا سيد «مصعب»، هناك الكثير من الجثث البشرية المتحللة في الأسفل».

انتشر الجميع للبحث عن مدخل السرداب، لكنَّ محاولاتهم كلها قد باءت بالفشل، فأمر السيد مصعب فرقة الإطفاء باستخدام الآليات الثقيلة لتوسيع الفتحة واستخدامها للنزول. وبالفعل بدأ

اتجهتُ نحوهم، فرأيتُ حاملاً خشبياً يعلوه كتاب، وعلى جانبيه شمعدانان بشموع ثلاثية حمراء قد ذابت إلى وسطها، دنوتُ أكثر من الكتاب الذي كُتب على حاشيته العلوية «شمس المعارف الكبرى»، مفتوحاً على صفحة «الأضحية» لتسخير الجن.

وخلف الكتاب على الحائط كانت هناك الكثير من الجِرار الزجاجية، التي احتوت على أعضاء بشرية تسبح في مائها، وهناك جرة مليئة بالعيون متشابكة الأعصاب، وكلها عيون ذات قرنية زرقاء. خرجنا من المكان لننتقل إلى مركز الشرطة وتم اخذ اقوالنا التي اتفقنا مسبقاً بأنّ سبب زيارتنا الأولى للجزيرة الحمراء هو توثيق مغامرة ونشرها عبر برنامج اليوتيوب.

بعد عدة أيام، اجتمعنا في غرفة المعيشة في منزلي، أنا وابنَا خالتَي والشيخ معاذ مع فايز، لكي نضع الخاتمة التي شملتهم في حكايتي فصارت مطلباً للجميع.. فدخلت (والدتي) وبين يديها الشاي والمكسرات وسط نظراتنا التي لم تعبأ لها بالمقابل، فصبّت الشاي لنفسها قائلة: اخدموا أنفسكم، هيا.. ماذا تنتظرون؟ ابدؤوا سرد الحكاية لكي تكتمل الصورة.

(فايز): تمَّ نقل الجثث وعظام الجثث المتحللة إلى الطب الجنائي لتحديد سبب الوفاة ومعرفة هوية المتوفين حسب سجلات الدولة، وقد ساهم وجود الشَّعر المعلّق في إجراء فحوص مطابقة العيّنات، ليتضح فيما بعد حسب التقرير المرسل أنّه للفتيات الشقراوات اللاتي اختفَين بين ليلة وضحاها خلال مُدد متفاوتة. لكنهنّ لم يكنَّ وحدهن، بل تبيّن وجود أجنَّة في مرحلة التكوين لم تُكمل شهرها

السادس، تمّ دفنها حول حامل الكتاب، وتمّ تذييل تقرير سبب وفاة الفتيات: التعذيب حتى الموت.

أردفَ (فايز): حيث إنّ هناك أدوات معلّقة على الحائط تمَّ استخدامها بالكامل لسحب أسنان وأظافر الضحايا، وبقر البطون ثم إخراج الأجنة، وأيضاً انتزاع فروات الرأس للحفاظ على الشعر، لقد تمَّ كل ذلك والضحايا بكامل يقظتهنّ.

الشيخ (معاذ): تمَّ استدعائي للمرة الأولى لأخذ أقوالي، إذ إنّنا كما تعرفون ذهبنا جميعاً إلى الجزيرة، لكن في المرة الثانية تمَّ استدعائي بصفة رسمية بهدف الاستفادة من خبرتي ومعلوماتي عن هذا السحر وكيفية التخلص منه، لكن للأسف الشديد.. إنّ من مارسَ هذا السحر قد أحكمَ قبضته على الجزيرة بأكملها!، لأنَّه نشر سحره الأسود في كل شبر فيها، في الأبواب والحوائط والآبار وتحت الأرض. لذا تمَّ التجوال في معظم البيوت برفقة رجال الشرطة لكي أسلمهم تقريري النهائي حول عملية التطهير، والذي يتطلب وجود أكثر من ١٠٠ شيخ، لينتشروا في ١٠٠٠ منزل مدنس بأعمال السحر الأسود.

(سالم): «هل وجدوا السبب خلف الأسلاك الشائكة في البئر؟»، (فايز): «نعم، لقد كان يستخدمه الساحر لقتل الثعالب»، (عبيد): «أكثر ما يحيرني في هذه الحكاية هو لماذا يحتوي هذا المنزل بالتحديد على سرداب؟»، (حامد): «تعقيباً على سؤال عبيد، أين هو مدخله؟»، (فايز): «لا تعليق، أكدّ البحث عدم وجود مدخل إلا الفتحة الضيقة، ولا يوجد سرداب غيره في الجزيرة بأكملها!».

(فايز): اتَّضح من التحقيقات أنّ الساحر كان يمارس السحر والشعوذة في جميع أنحاء الجزيرة، واتخذ معظم بيوتها لحبس ضحاياه لمُدد طويلة والتمثيل بهم، وذلك لإكمال طقس من طقوس السحر الأسود. ويبدو أنّه قد أنجزَ طقسه، لأنّه لم يترك روحاً في جسد لكي تحكي لنا ما عاشه صاحبها من عذاب في هذه الظلمات.

(والدتي) عبّأت رئتيها بالهواء لتنطق: «الآن فهمنا أنّ هذه الأشباح هي الأرواح الغاضبة بسبب عدم أخذ حقها من هذا المغتصب الضال، فلن تهدأ قبل أن يُنتصر لها ويتم دفنها بالطريقة السوية، وعرفنا الظواهر الغريبة التي حدثت بفعل السحر الأسود.. لكن السؤال الأهم: هل قبضتم على الساحر؟». أومأ فايز بالنفي، ليتبعه الصمت الغاضب من الجميع!

(سالم): وكما يُقال «رُبّ ضارة نافعة»، اتخذنا المكان للضرر وعاد بالمنفعة على الموتى الذين سوف يخرجون من ظلمات السراديب إلى دفن يليق بهم كبشر.

******

دخلت (والدتي) والدموع ما زالت عالقة على ذقنها: لقد جهّزتُ لكَ علبة الطعام لكيلا تجوع أثناء سفركَ إلى الكويت»، (سالم): «شكراً لكِ يا جنّتي». قبّلتُها على رأسها ثم حملتُ حقيبتي وعلبة الطعام لأخرج إلى ابنَي خالتَي اللذيْن ينتظران في السيارة.

(حامد): «سالم، منذ حادثة الجزيرة لم تخرج معنا إلى حفل، وثمة وقت قبل إقلاع الطائرة، هل توافق على مرح سريع؟»، (سالم) بعد

دقائق من السكوت: «لا أريد هذا المرح، فقد عاهدتُ نفسي على تركه ما حييتُ، لكن لديّ طلب أخير»، (عبيد): «قبل أن تقول طلبكَ اعلم أنّه مُجاب»، (سالم): «أريد أن أعرّج على الجزيرة الحمراء للمرة الأخيرة في حياتي»، (حامد): «لقد حلَّ الليل الآن وموعد طائرتكَ بعد ثلاث ساعات، فهل تظن أنّ طلبكَ في محله؟»، (سالم): «أرجو منكما تنفيذ طلبي الأخير»، (حامد): «لكَ ذلك».

على مشارف الجزيرة الحمراء توقّفت السيارة عند المدخل، لأنّ هناك طفلاً في المقدمة، لا ليس بطفل، بل إنّه قزم أشعث الرأس لا تظهر ملامحه بسبب غياب النور الذي طغى عليه الظلام، ينتظرنا بفارغ الصبر لكي ينتقم لسيده ساحر جزيرة رأس الخيمة الحمراء!.

---

(5) حرب النجوم: سلسلة أفلام حرب الفضاء الملحمية المشهورة المكونة من 9 أفلام، بدأ الجزء الأول في سنة 1977م، ونال قاعدة جماهيرية عظيمة بسبب حب الجمهور لفرسان الفضاء الذين يطلقون عليهم لقب (جاداي)، وهؤلاء يحملون سيوفاً من الليزر الوهاج لمحاربة قوى الظلام.

(6) الكرك: شاي مخلوط بالحليب والهيل، يتم طبخه على نار هادئة لمدة طويلة من الزمن لتمتزج مكوناته فتصل إلى درجة عالية من اللذة، أصله من الهند وانتقل إلى دول الخليج في زمن الغوص ونقل البضائع البحرية، ومنها انتقل بسبب تعلّق البحارة بطعمه اللذيذ.

(7) اللغة السريانية: لغة مشتقة من اللغة السامية التي تنتسب إلى سام بن النبي نوح عليه السلام يرجع أصلها إلى ما قبل الميلاد، مصدرها الأصلي أسيا وأفريقيا، وتتفرع عن اللغة السامية اللغتانِ العربية والعبرية. اللغة السريانية

مستخدمة حتى الآن، ويتحدث الناس بها في بعض مناطق سوريا والعراق ومنهم المسيحيون، حيث إنّ المسيح عليه السلام قد استخدم اللغة الآرامية في خطاباته، وهي فرع من فروع السريانية.. وشاع استخدام اللغة في أعمال السحر، وذلك يرجع إلى الاعتقاد الجازم بأنَّها لغة الجن الأصلية كما هي في الدعوة البرهتية (يرجى عدم قراءتها، ولا بأس من أخذ معلومات عنها من باب الاطلاع).

القصة الرابعة يرويها

«خالد»

(مجلس الجن)

برزخ الحب ولا دنيا الكَبَد..

أنتظرُ وبصري موجّه إلى قاعة المجلس الضخمة، طاولة على مدّ البصر، احتوت جميع أجناس الجن بأشكالهم الغريبة، وهناك جلسَ زعيمهم ينظر إلى الحاضرين تارة، وتارةً أخرى يثقبني بنظراته التي كادت أن تُذيبني بفعل شررها المتطاير.

******

(خالد): لقد تناقلتم حكاياتكم الشيقة عن أغرب الأحداث التي حصلت في حياتكم، لكنّ حكايتي بطلها والدي «وليد»، مما اثّرت عواقبها على حياته، لتصيبنا بالعدوى التي انتقلت إلى جميع أفراد الأسرة.

في البداية كان والدي مختلفاً في تفكيره عن إخوته، الذين انتشروا في جمهورية مصر العربية والمملكة الأردنية الهاشمية مع نهاية الستينيات وبداية حقبة السبعينيات طلباً للعلم في التخصصات النادرة، إلّا والدي الذي كان يكابد لإعانة والده في تجارته في مختلف دكاكينه منذ نعومة أظفاره، ولم يكن مختلفاً عنهم في طريقة تفكيره فقط، بل إنّه أجملهم، فقد كان ذا شعر ناعم كستنائي وعينين ميَّزهما لونهما العسلي الفاتح، مما جعلهما ملفتتين

للنظر.

تعلَّم منهج التجارة التي كان يمارسها أثناء دراسته في المرحلة الثانوية، فكان يستخدم الرياضيات في جدولة الأرباح، وتعلّم استخدام أخلاقه الدمثة في تسيير العقبات في المعاملات اليومية وفي بناء علاقة وطيدة مع التجار. لمعَ نجمه في الوسط إلى أن أصبح اليد العليا لتجارة والده.

لكن لا شيء يدوم على حال، فتبدأ نهاية الإنسان حين ولادته، فيتناقص عمره إلى أن يرحل مودعاً الدنيا التي زارها إلى المستقر النهائي وحيداً في حفرة، تاركاً مقعده في هذه الأرض ليحل محله وليدٌ جديد. رحل جدّي في منتصف السبعينيات وبدأ مع وفاته الهرج والمرج في تقسيم الإرث، وطبعاً لا ننسى الغائبين عن الساحة بسبب دراساتهم العليا، إذ إنّهم يظنون أنَّ وليد لا يُظهر كل الإرث على السطح، لكي يأخذ نصيب الأسد المُخبَّأ في باطنها.

قدّم والدي كشوفات الحسابات والشهود والوثائق الخاصة بجميع أملاك جدّي، لكي يقسم التركة حسب الشريعة الإسلامية مع زيادة أضافها من ماله الخاص. لكنّه لم يكتفِ من نهمه وحبه للتجارة، حيث إنّه اشترى دكاناً في سوق المباركية في منطقة القبلة – الكويت ليستمر في ممارسة شغفه، فرغم صغر سنه إلا أنه كان كبير في علمه، وكل مَن كانوا في هذا الوسط يحسبون لهذا العلم الحساب اللازم حين الدخول معه في صفقات، بسبب دهائه ورجاحة عقله.

استقرَّ في الختام على خط تجارة الأحجار الكريمة ليكون هو

مصدر رزقه الوحيد ووضعَ فيه جلّ اهتمامه، فصار الدكان مختصّاً ببيع الخواتم الرجالية ذات الأحجار البراقة مثل، حجر عين النمر الأخضر والعقيق وغيره، وهناك السُّبَح المشغولة بأجود أنواع الأحجار الكريمة ومنها الكهرب الألماني والروسي، وأنواع الحلي النسائية الفريدة من نوعها. يقصده القاصي والداني لشراء منتجاته وأحياناً لفحص مجوهراته لأنّ له عين الخبير، وفي معظم الأحيان لاستشارته في أسعار الأحجار ومواطن تواجدها. ولم يكن بخيلاً في معلوماته بل كان الصدر الرحب للجميع.

كَثُر سفره لجلب الغالي والثمين من نوادر الأحجار، وأصبح لديه معارف من جميع أقطار العالم وخصوصاً في الخليج. أقدمَ على الزواج في الثمانينيات لأكون أول أبنائه رغم أنّني لا أتذكّر طفولتي معه، بسبب غيابه المتكرر سواء أكان ذلك بسبب انشغاله بتجارته المحلية أم لكثرة أسفاره. وكانت أمي من أشد المناصرين له والداعمين لطموحه، الذي كان يكبر مع تضخم تجارته التي انتشرت على شكل دكاكين غزت جميع أقطار الخليج، لا الكويت حصراً.

لكن ليست هذه حكايتي.. بل إنَّها مقدمة لها، لكي تربطوا أحداثها فيما بعد. مضت السنون مع تساقط حبات الرمال في ساعتي المقلوبة، بِتُّ في العاشرة من عمري وكنتُ أذهب معه إلى دكانه الرئيسي في سوق المباركية، لأُعينه في الترتيبات وأتعلَّم القليل من تجارة الأحجار الكريمة، وألهو هنا وهناك بعد إنهاء فروضي المدرسية.

في يوم من الأيام لمحتُ عين والدي من خارج الدكان وهي تبرق

في فرح وقد تهلّل محياه سروراً، لأدخل الدكان وأسترق السمع من باب الفضول، فجلستُ بجانب العم «محمود» الذي كان مديراً لأعمال والدي وعمودَ الأساس لتجارته.

التاجر (حسين) صديق والدي من سلطنة عُمان، وقد زاره لكي يبيع له جزءاً من أحجاره ويشتري بعضاً ممّا عنده، أو بمعنى آخر تبادل النوادر من الأحجار حسب الحاجة في بلدَيّ كلٍّ منهما، وما شدّ والدي وأثارَ حماسهُ أن ذلك التاجر قال له: هناك حجر تمَّ اكتشافه بجانب وادي طيوي في سلطنة عُمان، سوف يُحدث ضجة في الأرجاء.

وكان هذا آخر لقاء مع والدي الذي شدّ العزم على الرحيل إلى سلطنة عُمان، ولم يعد مرة أخرى إلّا بعد ١٥ عاماً، لألتقي بوالدي الذي كان على نفس هيئته وملابسه وشكله وكأنّه لم يكبر يوماً واحداً، فكان مَن ينظر إلينا يظننا أخوَين من شدة شبابه ودوام جماله.

١٥ عاماً من الحزن على فراقه، تمَّ خلالها إرسال الأقارب للبحث عنه، ووضع مكافآت مالية لمَن يدلّنا على طريقه، أو حتى يخبرنا بمكان قبره إن لم تُكتب له النجاة، حتى مُرافقوه تمَّ الإلحاح في سؤالهم وكان لديهم جوابٌ واحدٌ وكأنّ بينهم اتفاقاً على حفظ سيناريو الردّ على من يسأل عنه: «لم يكن معنا في رحلتنا من الأساس»، سنوات قضيناها حزناً وصبراً على فراقه، كابدت والدتي خلالها مشقة لعب الدورَيْن ليصمد منزلنا وتولّت فيها تربية أخويَّ «ثامر» و «بدر»، وكان العم محمود بمثابة الوالد الوفي الذي استمر في تجارة والدي بل وسّعها حسب خبرته، وكان يضع بين أيدينا مستحقاتنا الشهرية دون

نقصان.

في ليلة من ليالي يناير الماطرة وبينما كنا مضطجعين تحت اللحاف في سبات على نغم قطرات المطر، فُتح باب المنزل فخرجتُ من غرفتي هلعاً بسبب نومي الخفيف لأجد والدتي مقابلي، لقد سبقتني في الخروج من غرفتها وكانت متجهة إلى مكاني من شدة خوفها.

نزلنا إلى الطابق الأرضي لنجد أحدهم يجلس في الظلام على إحدى أرائك غرفة المعيشة، يولينا ظهره معتمراً عِمامة سوداء على رأسه. (خالد) يقترب بخطى متقاربة حذرة: «من أنتَ؟»، لا توجد استجابة ووالدتي محتضنة ذراعي وقد غرست أظافرها في جلدي من شدة الخوف.

ما زلنا نقترب لنلتفّ حول الأريكة ونتقابل مع المجهول.. لمحتُ نفسي جالساً على الكرسي، فشهقت (والدتي) قائلة: وليد!، ذهبتُ بسرعة إلى قابس الإضاءة لأفتحه ولأبدّد علامات الاستفهام التي تحوم حول رأسي والذهول المرسوم على محيا والدتي.

(وليد): «حبيبتي أم خالد»، (والدتي): «كيف..؟!»، كان والدي جالساً في مكانه المعتاد في غرفة المعيشة، يرتدي جلباباً عُمانياً وعمامة سوداء منقوشة بالأحمر القرمزي، وكان ذلك آخر زيّ يرتديه حين ودَّعناه، أمَّا شكله فكان كما رأيته في لقائنا الأخير، لم يتمكّن الزمن من ترك بصمته عليه، ولا شعرة واحدة بيضاء ولا خطوط جديدة حول العين ولا علامة تشير إلى التقدم في العمر الذي يجب

أن يبدو عليه الآن، بل كان انا، وكأنه في مثل عمري، ويشبهني بل اشبهه لحد كبيرا!

استيقظ إخوتي وتكرر مشهد الذهول، وما زال والدي يبتسم ابتسامته العذبة، وينقل نظراته بيننا التي أطفأت الكثير من معاناة الفقد. انتقلنا إلى تلبية احتياجاتنا في الحُضن الغائب عنّا لسنين عجاف، ثم انتقلنا إلى الحديث عن السبب الذي يبرر هذا الغياب، وفي دواخلنا كنا نرجو الله أن يكون سبباً مقنعاً لكيلا يكون الكلام المنطوق مطرقة تهدم أساسات هذا المنزل.

(خالد): «أبي أين كنتَ طوال تلك السنين؟»، قال (والدي) وهو ينظر إلى عائلته بعين الحب التي لم تفارقها الابتسامة: «كنتُ أريد أن أخبركم فيما بعد، لكنَّني أرى الشغف بين أعينكم.. لقد انتقلتُ إلى عالم آخر»، (والدتي): «(سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم)، ماذا تقول يا أبا خالد؟» (والدي): «كما أخبرتُكم، لقد دخلتُ إحدى كهوف سلطنة عُمان للنظر إلى حجر نادر تمَّ اكتشافه مؤخراً، فانتقلتُ من عالم الإنس إلى عالم الجان، وتمّ حبسي منذ ذلك اليوم ثمَّ الإفراج عني منذ يومين.

أردفَ (والدي) قائلاً: «أرى أنّ مختصر الكلام لم يُرضِ مسامعكم»، (خالد): «بالتأكيد، لأنّ ما تقوله لا يتوافق مع المنطق، أرجوكَ يا أبي أخبرنا بالحقيقة التي تُشفي لهيب قلوبنا!، وأعتذر عن وقاحتي.. لكنّ غيابكَ يجب تبريره لكي تسحق دموع ولوعة الذكريات، لكي ننسى ما عانينا من آلام أثناء غيابكَ.

«أكملَ والدي الحكاية على لسانه مع إنصاتنا الكامل»

حسناً لكم ما طلبتُم، كما تعلمون كنتُ قد تجهّزتُ للسفر إلى سلطنة عُمان، للنظر إلى الحجر النادر الذي يُكنى بـ حجر الأوبال الناري(8) متداخل الألوان، وأيضاً إلى حجر الأكوامارين(9) حسب إفادة صديقي حسين الذي انطلقَ معي من الكويت إلى العاصمة مسقط. كان السائق في انتظارنا من أجل الانطلاق مباشرة من المطار إلى وادي طيوي الذي يبعد ساعتين عن العاصمة.

وعقدْنا العزم على أن نبيت في الوادي المأهول بالسكان لمدة يومين، حتى تصل مجموعة المتسلقين الرحالة لكي نرحل بعدها إلى منطقة فنس في ولاية قريات. وصلنا إلى الوادي لنرمي أنفسنا في أحضان الأسرَّة مستسلمين إلى النوم بعد يوم شاق من الترحال.

في اليوم التالي، وجدتُ الجميع يعدّون العدة للرحيل، فذهبتُ إلى صديقي حسين الذي بادرَ بالترحيب بابتسامته المشرقة وبأخلاقه النبيلة كما هي عادة أهل عُمان الطيبين، فهم مِثال يُحتذى به في حسن الخلق. كانت المجموعة التي اجتمعت في المنزل المستأجر جميعها من الباحثين في الأحجار الكريمة، فمنهم من يريد أن يتاجر بها وآخر يريد أن يدرسها لتوثيق أبحاثه، وكان سبب اجتماعهم هو ندرة هذا الحجر الذي ظهر في جزيرة العرب.

لكنّ استعدادنا في هذا الوقت كان لصيد السمك، فالوادي مشهور بالقوارب الصغيرة التي تكون جاهزة على الدوام للانطلاق إلى خليج عمان المعروف بكثرة الأسماك المتنوعة وبجمال المناظر المحيطة

بها.

ذهبنا واستمتعنا بصيد الكثير من الأسماك منذ صباح ذلك اليوم حتى الغروب، لكنَّ هناك أمراً قد حدث لم أستطع أن أفسره في ذلك الوقت، حيث إنّني كنتُ في فترة الغروب أمسك خيط الصيد متأهباً لاصطياد أي فريسة جديدة، بينما سافرَ عقلي إلى الكويت لهفةً وشوقاً إليكم، إلى أن ظهرَ على مسافة مني (كيان) هلامي مبهم الشكل، ملامحه سوداء بسبب بعده والظلام الذي طغى على النور من حولنا، نطقَ قائلاً بهمس وكأنّه وضع ثغره على مقربة من أذني: عند نقطة ارتكاز الضوء في الفتحة الثالثة لكن بعد الغروب، أما حانَ وقت اللقاء!

نظرتُ بسرعة إلى مصدر الصوت فلم أجد أحداً، ونظرتُ أمامي إلى ذلك الكيان لكنّه اختفى وكأنّ ذراته تبخرت في الأفق. رجعنا وشوينا سمكاتنا وأكلنا إلى أن انفجرت بطوننا وذهبنا في سبات عميق، على أن نستيقظ في الصباح الباكر ونرحل إلى المكان الموعود. تحوّل المنزل إلى خلية نحل في صباح اليوم التالي، فتمَّ تجهيز العدة وتحميلها إلى السيارات ذات الدفع الرباعي وكذلك حملنا معنا جميع احتياجاتنا، لكي ننجز مهمتنا كما أخبرنا الرحالة لمدة أسبوع متواصل.

من الطريق المُعبّد إلى الطريق الرملي، ومن وادٍ إلى مُرتفع، وأنا أنظر من النافذة إلى القرى الصغيرة في الخلاء بين اغنامهم ونخيلهم، إلى أن وصلنا إلى سيارة أخرى كانت في انتظارنا لتقود الطريق. فتحتُ شباك السيارة لتجديد الهواء، فسمعتُ حديث

الرحالة وهم يتناقشون فيما بينهم حول الخريطة الظاهرة على هواتفهم، وكان أحدهم يوجه الآخر نحو المنعطفات، لكي يتم أخذ الحيطة من السقوط بسبب الهضبات التي تطلّ على الأخاديد.

ركبَ الرحالة وقائد مجموعتنا السيارات، فسألناه عن موعد الوصول وعن اسم المكان الذي كنا نشدّ إليه الرحال، (القائد): «لن نتجاوز عشرين دقيقة حتى ننزل إلى «كهف مجلس الجن»». سمعت في حينه دقات قلوب الموجودين في السيارة من هول الاسم المنطوق، فسألته مستفسراً عن سبب هذه التسمية، على أمل أن تكون تسمية عابرة لا علاقة لها بالجن.

ابتسمَ (القائد) قائلاً: أعلم أنّ الخوف قد تمكّن منكم بسبب اسم المكان، لكن لا تقلقوا فإنّ هناك حكايات منقولة على لسان أشخاص -لا دليل عليها- بوجود الجان هناك، لكنَّ ما ثبُت هو أنّ جميع من نزلوا إلى الكهف لم يجدوا إلّا الخواء والهواء، وطبعاً الأحجار الكريمة التي تحتاج إلى البحث والتدقيق.

تابعَ (القائد) حديثه: الحكاية الدَّارجة من قِبَل أهل المنطقة تُشير إلى أنّ المكان الذي سوف نذهب إليه يُسمى في الحقيقة «هضبة سلمى»، وذلك بسبب ما حدث مع «سلمى» في نفس المكان. ففي قديم الزمان كانت هناك امرأة تقية ليس لها أي علاقات مع أقرانها، وتعيش وحدها في هذه المنطقة التي كانت غنية بمجاري الماء والأعشاب المتنوعة المنتشرة في أنحاء المنطقة على مد النظر، لديها سبع غنمات ترعاها وتستفيد من إنتاجها لسدّ قوت يومها. وفي يوم من الأيام التي تمكَّنت منها السِنة، باغتَ النمر العربي أغنامها وأكل

منها ما أكل وتلذّذ بقتل الباقي ليتركها وحيدة في هذا الخلاء. بكت وانفطرَ فؤادها حرقة على ما فقدت من سلوى، فرفعت يدها إلى السماء متضرعة إلى العزيز الجبّار بأن يأخذ حقها من الآثم المعتدي. لم يتأخّر جواب الرحمن الرحيم، ففي الليل الذي هيمنَ فيه الظلام على سماء لا نجوم فيها ولا ضياء للقمر المحجوب خلف ستار الغيوم.. توهّجت السماء بالحُمرة المرسلة إلى «سلمى»، التي كانت تنظر بدهشة وقد ارتعشت مفاصلها من الرهبة حتى كادت أن تفصل عظامها، وما هي إلا دقائق حتى ضربت النيازك أرضها وكان عددها سبعة نيازك، أصابَ أحدها ذلك النمر وخلف بعدها ثلاث فتحات في الأرض، شكّلت فيما بعد الكهف المنشود، وانبثقت من باطن الأرض بحيرة وشلالات باطنية تصبّ فيها بلا انقطاع وذلك بسبب ميلان بقعة البحيرة، فأغدقَ الله على سلمى جنة من جنان الأرض عوضاً عمّا فقدت. ويُقال إنّه بسبب جور البشر وكثرة ظلمهم لبعضهم بعضاً جفّ ماء الكهف، الذي أصبح فيما بعد أرضاً عجوزاً من كثرة تضاريس الزمن التي تركت عليها علامتها، لكنّها ما زالت غنية بالعطاء بسبب الأحجار التي ظهرت فيها بعد أن جفّ ماؤها.

(وليد): قصة مذهلة!، ماذا حدث لسلمى فيما بعد؟، ولماذا قلتَ بأننا سننزل إلى الكهف؟، (القائد): لا يوجد أي أخبار عن سلمى بعد هذه القصة، وسبب ذكر النزول هو أنّ الكهف موجود على هضبة، سقطت النيازك على هذه الهضبة فخلقت فتحات في باطنها، «كهف مجلس الجن» لم يكن عبارة عن فتحة في جانب الجبل، بل إنّه في قاع الأرض.

حكاية سلمى قد قرّبت لنا الطريق حتى بلغنا وجهتنا، نزلنا من السيارات ونحن بكامل حماسنا مع القليل من الخوف المختبئ داخل قاع القلب. تعاونَ الجميع في نصب الخيام بجانب الفتحة الأولى التي تبلغ ١٢٠ متراً، ثم افترشنا الأرض لنتناول وجبة الغداء، وأثناء الأكل ناقشَ الرحَّالة خطة البحث على أن يكون النزول الأول غداً صباحاً من الفتحة الأولى للتنقيب في محيطها لمدة يومين، ثم الانتقال إلى الفتحة الثانية للبحث لمدة يومين أيضاً، وختاماً الفتحة الثالثة ولها من أيام البحث أربعة بسبب ضخامة حجمها.

سوف يكون النزول عن طريق حبال التسلق بمعاونة «الخبير» الذي كان مع فريق الرحالة، حيث إنّه أدخلَ الطمأنينة إلى قلوبنا بعد أن أخبرنا بأنّه نزلَ إلى الكهف أكثر من عشر مرات ولا يوجد هناك أي أخطار تُذكر. بعد الغداء أخرجَ العدة ليشرح لنا طريقة لفّ الحبال وربطها ما بين الفخذين والخصر وطريقة النزول بها، على أن يكون هناك مجموعة من الرحالة في الأعلى لمعاونتنا على الصعود عند الانتهاء من المدة التي سوف نقضيها في الأسفل، وذلك قبل أن تغيب الشمس.

في الليل وسط دائرة كبيرة من البشر، تراقصَ لهيب النار من نسمات الهواء، وتدريجياً انخفضَ ضجيج المحادثات إلى أنّ خيّم الهدوء على المكان بعيون تعكس مُقلها حُمرة اللهب، لترحل عقول أولئك الرجال إلى مواطن أخرى لا يعلمها إلا الله. أخذت الدائرة بالتناقص بسبب النعاس الذي لعب دور النَدّاهة في استدعاء ضحاياها إلى أحضانها لتهيمن عليهم واحداً تلو الآخر، فلم أجد معي

بعد حين إلا أنا ونفسي والفؤاد، ولأول مرة لم نتناقش في أمور الحياة، ولم تبدأ في تأنيبي بالحديث السلبي المؤلم كعادتها، إنما اخترنا الصمت للاستمتاع بهذه اللحظة الساكنة الخالية من كل شيء ما عدا الجمال، جمال الهدوء.. صوت فرقعات الحطب مع نسمات الريح الهادئة التي تطرب الأذن، رائحة الطبيعة النقية تُنعش الرئتين، وشعرتُ كذلك باسترخاء ألياف العضلات بعد يوم شاق، لكن هل يعطيكَ الأفق مجالاً للاستمتاع بهذه اللحظة!

وبينما كنتُ أنظر إلى الأفق البعيد ظهر سراب خلف لهيب النار، رغم أنّ السراب لا يظهر في الليل، لأرى أنثى تمشي بغنج متجهةً إليّ، عدّلتُ وضعية جسدي وأطلتُ النظر لعلَّ عيني قد أخطأت.. لكن فعلاً هناك من يتقدّم نحو مكاني من الأفق البعيد، فهمست في أذني مرة أخرى: عند نقطة ارتكاز الضوء في الفتحة الثالثة، لكن بعد الغروب: أما حانَ وقت اللقاء!

اختفى كل شيء، لأستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وحزبه، وأذهب إلى جحيم الندّاهة هروباً من سراب المجهول الذي يظهر بين الفينة والأخرى، فذهبتُ في سبات عميق.

أصبحنا وأصبحَ المُلك لله، قالها (حسين) وهو يمدّد ذراعيه إلى الأعلى، فتحت جفني لأنظر حولي، لأجد معظم الموجودين قد استعدوا لتناول وجباتهم، وأخذ بعضهم الآخر وضعية الاستعداد للنزول، ذهبتُ مسرعاً لأفعل فعلهم وأسعى إلى رزقي.

تحوّلت الفتحة الأولى إلى بيت عنكبوت لم يكتمل نسجها، بسبب

كثرة الحبال التي تدلّت منها، وبسبب خبرة الرحالة لم تحدث أي أخطاء وتكللت عملية النزول بسلام.. وطأت أقدامنا أرض الكهف لننظر إلى داخله بتعجب.. أرض متعرجة غير مستوية، سقف شاهق، حوائط صلبة مترهلة، رائحة رطوبة، خطوط من النور مرتكزة على الأرض تطير ذرات الغبار بداخلها، صوتُ قطرات الماء من حولنا في كل مكان متبوع بصدى متناغم.

أخرجَ الجميع عدّتهم للتنقيب هنا وهناك، فمضت السويعات التي نتج عنها مجموعة مُرضية من الأحجار الصغيرة، ممّا أدخلَ البهجة إلى قلوبنا بسبب كرم هذا الكهف، أعلنَ الرحالة موعد خروجنا بسبب تضاؤل الرؤية في الأسفل رغم وجود المشاعل الخشبية المتوهجة التي أسندت في المحيط، لكن الحِيطة تتطلَّب الصعود. أُنزلت الحبال وتعاونَ فريق الرحالة الذي في الأعلى مع الذين في الأسفل لإتمام عملية صعودنا التي تكللت بالنجاح.

فجلسنا مثل جلستنا الأولى حول لهيب النار نستعرض الأحجار التي عثرنا عليها، فكان الجميع يسألونني عن نوع الحجر وثمنه تاركين الخبراء في غيظهم يُحبرون، كادت نظراتهم أن تثقب جسدي من الغل، كيف لهذا الشاب أن يحمل جبال المعلومات تلك في عقله؟ فلديه الإجابة عن كل سؤال ويعرف تكوين كل حجر! بدأت عدوى النعاس تنتقل من شخص إلى آخر فرحلوا بخطى متثاقلة إلى مراتبهم للنوم، وكما يقتضي الحال جلستُ وحدي أتأمّل السماء وأنعم بلحظات الهدوء التي انتهت بعد أن نظرتُ إلى نيزك يتصارع مع الجاذبية التي تسحبه إلى موضعي.

تسمّرتُ مكاني وشُلّت أطرافي ما عدا اللسان الذي ينطق الشهادتين مستسلماً لقدري، أغلقتُ عيني لأدعكها ثم فتحتها ليختفي النيزك ويظهر ذلك الكيان وهو يسبح في السماء ليقول لي ما قاله سابقاً. إنّها المرة الثالثة، لا يمكن أن يكون الأمر صدفة، لا بدّ أن يكون هناك سرّ خلف هذا الكيان.

طنين النحل علا مع إشراق شمس الصباح، انتشرت خليّتنا في الأرجاء استعداداً للإفطار الذي يليه النزول إلى قعر الكهف، لكنّ حماسهم في هذا اليوم كان أكبر من ذي قبل بسبب الخيرات الحِسان التي وجدوها في يومهم الأول. وبالفعل نزلنا متوكلين على الرزّاق الكريم ولا يوجد في نزولنا أخطاء تُذكر بسبب خبرة الرحالة وثقتنا الكاملة بهم. أخرجنا المنجل والفُرشاة لنبحث بين جدران الكهف وعلى أرضه، وقد أسهمَ نور الشمس في تلألؤ بريق بعض الأحجار لتدخل جعبتنا وتكبر بها أحلامنا.

صرخَ أحدهم كي يذهب الجميع إلى موقعه، فسمعت اسمي يصدح بينهم، انظرْ يا (وليد) وبشّرْنا، أهذا هو ما نظن؟، أمسكتُ الحجر بين أصابعي لأتفحّصه بعد أن أزلتُ الأتربة العالقة عليه، كان بلوريّ الشكل وقد امتزجَ فيه اللونان الأخضر والأزرق. نظرتُ إلى صديقي الفائز بالغنيمة لأخبره: مبارك عليك، أنتَ أوّل من وجد حجر الأكوامارين النادر، أكمل بحثك لعلك تجد حجم أكبر من هذه الصغيرة.

خرجنا بفرحة أكبر من التي قبلها، لكنّ خروجنا هذه المرة تلاه طوي الخيام للرحيل إلى الفتحة الثانية، والتي جرى فيها مثل ما جرى في الفتحة الأولى مع عدم ظهور الكيان لمرة رابعة، وتمَّ

الظفر بالغالي من الأحجار المميزة في يومين من أجمل أيام حياتي، وذلك لأنّني مارستُ شغفي في البحث عن الأحجار، ومنها خوض المغامرات التي تجعل من الحصول على هذه الأحجار لذة لا مثيل لها. ليست كل الأرزاق جاهزة بين موضع قدميك، فهناك ما تحصل عليه بعد مشقة وجبين مُندّى.

رحلنا إلى المستقر الأخير راجين الله أن نجد الأحجار التي من أجلها الرحال شُدّتْ. عندما تنفَّس الصباح نزلنا إلى قعر أكبر الفتحات، بحثنا في أفقِها فوجدناها خالية من النعيم، إذ لا يوجد فيها غير التراب والصخور المدببة، أطلنا البحث مع وجوه خائبة المسعى، الأيادي تجرّحت، العزيمة انهزمت، لنخرج بجعاب فارغة ليس كما تمنينا، فهذه الفتحة بخيلة بمعطياتها.

نزلنا في اليوم التالي، وكان الجميع مشغولين في البحث، وانشغلتُ في بحثي في الأرجاء لكن من شدة انزعاجي ابتعدتُ عن المجموعة من دون أن أشعر، نظرتُ خلفي فرأيتهم بأحجام النمل بسبب بُعد المسافة بيننا، توقفتُ برهة، هل أُكمل طريقي أم أرجع؟ وبينما أرجح الأمرين في عقلي سمعتُ أحد الرحالة من بعيد يصيح منذراً باقتراب وقت الخروج وذلك لدنو الشمس من زوالها.

نظرتُ في الأفق لأجد خيط الضوء الخفيف يرتكز على موضع ليس ببعيد عن مكاني، تقدّمتُ مُسيَّراً، قدمي تسير مُجبرة على غير هدى، وكأنَّ هناك مَن يقودني بكامل رضاي. لوّحت الشمس مودِّعة مع تقدّمي إلى نقطة الارتكاز لأرى وهجاً يلمع طرفه بلون الغروب، نظرتُ من حولي لأجد نقوشاً ومربعات تحتوي على حروف وأرقام

محفورة بشكل هندسي على الحوائط، ورأيتُ النجمات الخماسية منتشرة، أخرجتُ المنجل وبدأتُ بالحفر حول أطراف الحجر الذي جذبتني لمعته، إلى أن وصلتُ إلى عمق بحجم الشِبر، توقفتُ مذهولاً.. إنّه الحجر المنشود، بالفعل إنّه حجر الأوبال الناري.

من شدة فرحي تركتُ أدواتي وهممتُ بالحفر بيدي ليظهر طرف آخر لنفس الحجر، فجُرحت يدي لتنزف على الحجر، لم أكترث بما حدث وأكملتُ الحفر.. ما هذا؟، إنَّها جمجمة! لكنّني أجزم أنّها غير بشرية ولا حتى حيوانية، كيف لها أن تكون بهذا الحجم الضخم؟!

الحجر متشكّل على هيئة جمجمة نما على رأسها قرنان من حجر الأوبال، وضعتُ يدي على مقدمة الجمجمة للنظر إلى هذه الدعابة، فسالت قطرة من دماء يدي على رأس الجمجمة ثم اهتزت الأرض من تحتي، وذهبَ النور المتبقي ليحل محله الظلام الحالك، ثم خرجتْ من العدم ظِلال سوداء، بعدد يسمح لها بإغلاق الدائرة من حولي، عدد يغلب شجاعتي.

كان في أيديهم سلاسل من نار أضاءت المحيط بلهيبها، أمسكوا بذراعيّ، جرّوني بعنف وقدماي ما زالتا تحتكان بصخور الأرض، ثم تغلغلوا إلى عمق الظلام داخل الكهف. ظهرت أمامي فتحة أخرى تؤدي إلى الأسفل، قفزوا داخلها بالتتابع، ورموني بداخلها لأهوي منتظراً لحظة ارتطام جسدي بقاعها متوقعاً أن تتحطّم عظامي وكأنّها قطعة زجاج، ومن شدة العمق الذي سقطتُ داخله، كادت أذُناي أن تنفجرا من الضغط، وأصبحَ التنفس ضرباً من المستحيل، استسلمتُ إلى قدري وأغمضتُ عيني لأغيب عن الوعي.

فتحتُ عيني لأجد نفسي وسط قاعة ضخمة، يجلس أمامي شياطين ذوو قرون من نفس الحجر الناري، أحجامهم ضخمة، بأجساد حمراء ووجوه غاضبة خالية من الأنوف، طويلة الآذان، وهناك حشد منهم يلتفون حولي لأنظر إلى الكرسي المضيء الذي أجلس عليه ويداي مقيدتان مع قدميّ بأساور من فضة منقوشة بكلمات غريبة، متصلة فيما بينها بسلاسل تمنعني من الحركة.

هوى (الشيطان) الذي يجلس مقابلي بمطرقته على الطاولة، ونطقَ قائلاً: أيها البشري كيف لكَ أن تدنّس قبر قائدنا الأعلى «هفيف بن مقلاص»، زعيم قبائل العالم السفلي الجنوبية، ورأس طاولة «مجلس الجن»؟. تعالى الهرج والمرج من قبل الحشود الغاضبة، كدتُ أنطق لولا أنّ هناك طوقاً من نحاس قد التصق بتفاحة آدم، فانكتمت أنفاسي مجبراً.

(الشيطان صاحب المطرقة): حكمت المحكمة عليكَ يا بشري بالسجن لمدة ١٥ سنة. صعدت المطرقة إلى الأعلى ولم تكد تهوي إلى الأسفل إلا وأنا مُعلّق بين السقف الشاهق وبين القاع الممتلئ بجمهور الشياطين، داخل هذا القفص المتأرجح مستقري ومنزلي في فترة محكوميتي فلا جناح لي ولا حيلة.

قضيتُ محكوميتي في نفس مكاني، أعاني كل أنواع الظلم والألم لكن أكثر ما كان ينهشني هو الوحدة والاشتياق للحرية وللأهل، تبعثر مني حساب الوقت بعد مضي مدة من الزمن، لا أعلم أين أنا، ومع الوقت نسيتُ من أنا، ولماذا أنا هنا من الأساس!

في يوم من الأيام، فتحتُ عيني من بعد السبات، لأجد أمامي (جنّ طيّار)، فارداً جناحيه حاملاً رمحه في قبضته، قائلاً: انتهت محكوميتكَ، لا نريد أن نرى وجهكَ الكريه مرة أخرى.. فقطعَ برمحه السلسلة التي تحمل سجني، لأهوي إلى القاع مرتطماً باليابسة التي اشتقتُ أن أطؤها، فقدتُ وعيي في لحظة الارتطام لأغيب عن عالم الشياطين، فتحتُ عيني بعد حين لأجد نفسي عاريَ الجسد وقد تمكّن البرد مني وسط المجهول، احتضنتُ نفسي منتظراً لحظة الشروق لأتبيّن مكاني.

مع انبثاق شعاع الشمس تهلّل محياي لأنظر إليها وأستشعر دفأها، لأجد نفسي بجانب الفتحة الثالثة من كهف مجلس الجن. سرتُ إلى المجهول إلى أن ظهرت في الأفق مجموعة بيوت بينها نخلة وفسيلة، ومن شدة فرحي كنتُ كمَن وجدَ الجنة ونعيمها، فاستجمعتُ طاقتي راكضاً لأرتمي بين أحضان البشر مرة أخرى.

وصلتُ إلى مشارف المكان لتخور قواي وأغيب عن الوعي مرة أخرى على أرضهم.. انفتح جفني لأجد نفسي مستور الجسد بجلباب نظيف وأنا وسط السرير وبجانبي قارورة من الفخار مُندّاة بقطرات الماء، شربتُ ثم شربتُ ثم شربتُ حتى ارتويت.

أكرمني أهل تلكَ الواحة، وزودوني بالطعام والماء والكسوة لكي أعود إلى وطني وأهلي، وها أنا بينكم بفضل من الله. (أم خالد) وهي تمسح قطرات الدموع العالقة في ذقنها: «لم يتبقَّ عليكَ إلّا إظهار الدليل لكي تختم حكايتكَ»، كشفَ (وليد) عن ساعديه: «هذا الدليل، تمَّ تحجيل يدي بهذه الأساور الفضية المنقوشة لأعيش مقيداً بها ما

حييت، وهو عقابي الأبدي على تدنيس مقدسات الجن..»

(خالد): تقبّل الجميع الحكاية بصدر رحب حتى لو أنّها خارج حدود المنطق، لكنني ما زلتُ غير مقتنع بما سمعتُ. رجعت الحياة إلى طبيعتها ودخل السرور قلوبنا قبل بيتنا لوجود السند في هذه الدنيا، ليتبدل الحزن على فراق والدي إلى أفراح مفرطة، ففي كل يوم تُقام مأدبة في المنزل والدكان الرئيسي بسبب توافد الزائرين المهنِّئين بسلامة والدي من كل حدب وصوب.

كنتُ أنتظر اللحظة المناسبة التي أستطيع فيها أن أختلي بوالدي، لكي أبوح له بمكنون كان قد أكلَ أجزاء من قلبي، لكنها لم تحصل بسبب انشغال أبي الدائم، فقررتُ أن أصنع هذه اللحظة بنفسي، فطلبتُ من والدي أن نخرج إلى رحلة برية ننفرد بليلتها بين القمر المنير والرمال الناعمة، لتكون لنا وحدنا نتسامر خلالها وأحكي له ما جرى خلال غيابه، وقد وافقَ واستحسن الفكرة.

نزلنا من السيارة ثم فرشتُ مكان جلوسنا بالبساط والمساند الصوفية، مقابل الحطب المشتعل الذي صُفّت من حوله أباريق القهوة العربية والشاي الثقيل، جلسنا وتحدثنا عن مدى اشتياقنا إلى بعضنا وما حدث خلال غيابه، إلى أن قال (والدي): منذ أن التقيتُ بكم بعد غياب طويل، كنتُ أعلم أنّكَ تحمل الكثير من الأسئلة بين عينيكَ، مُخزّنة في أدراج عقلك، وأعلم أنّ هذه الرحلة ليست لإطفاء لهيب الشوق، بل لها مغزى آخر.. أخبرْني بما يجول في خاطرك يا ولدي.

تنهّد (خالد) ثم استنشقَ الهواء الحار الذي دار وسط رئتيه: «لطالما كنتَ تقرؤني من عيني، بالفعل يا والدي وأرجو منكَ أن تتقبّل كلامي بصدر رحب.. أنا.. أنا لا أصدق حرفاً مماّ قلتَ وأحتاج إلى سماع الحقيقة منك، لكي أتقبّل سبب غيابكَ المؤلم». ردّ(وليد) مبتسماً وعيناه مثبتتان على اللهب: «لماذا لا تصدقني؟»، (خالد): لديّ أسبابي، (وليد): وماهي أسبابك؟

(خالد): لماذا لم يتذكركَ جميع من كانوا معكَ في رحلتك؟، لماذا لم تزدد عمراً وتظهر عليك علامات التقدم في السن؟، لماذا رجعتَ بنفس القيافة التي غادرتَ بها؟، ما لا تعلمه يا والدي هو أنّني تعلمتُ كل ما يتعلّق بالأحجار وقرأتُ جميع كتبكَ التي جمعتها، وعلاوة على ذلك أبحرتُ في علومها إلى أن وصلتُ إلى ارتباطها بعالم ما وراء الطبيعة.. آثار الأساور على معصميك ليست بفعل محاكمة إنّها أساور ربط، وخصوصاً إذا كان هناك خاتم العقيق.. الذي يُجّمل البنصر في يدك اليسرى.

(وليد) مشرق المحيا: لقد أبهرتَني وأسعدتني وأرحتَ قلبي، أولاً لأنّكَ ورثتَ عني قوة الملاحظة وحبّ العلم والتعلم، وثانياً لأنّكَ أجبرتَني على البوح بجبل الأسرار الذي يكتم أنفاسي، لا بدّ أن أتكلّم، لا بد أن أروي ما حدث معي لمن أثق به، وإليك الحكاية الأصلية.

تابعَ (وليد) حديثه: في إحدى زياراتي إلى سلطنة عُمان، واجتماعي مع صديق قديم لمقايضة البضاعة وللتفاوض على الثمن المطلوب، أصرّ الرجل على إعطائي زيادة على الثمن المستحق بسبب طيبة أهل ذلكَ البلد، كما أجبرني على المكوث في منزله ومشاركته

مائدة العشاء، وقد حدث ذلك بالفعل وجلسنا حول المائدة التي حوت كل ما لذّ وطاب من خيرات الدنيا، وأخذنا نتناقش في أمور الأحجار ومواطنها لتتحوّل المحادثة إلى محادثة من طرف واحد، حيث كان صديقي منصتاً إليّ بجميع حواسه بعينين تلتمعان بهجة.

استأذنني بعد ذلك للمغادرة وعاد من جديد يحمل بين يديه صندوقاً، فتحه فكان في داخله خاتمٌ سلبَ لبّي منذ أن وقعت عيني عليه، مصنوعٌ من الفضة اللامعة متقنة الصنع، منقوش الأطراف، يجلس على عرشة العقيق الأحمر البلوري، منقوش بداخله أحرف متداخلة لم اربط بينها ولم افهم مغزاها إلا فيما بعد.

فقالَ صديقي (سْعِيد): «أرجو أن تقبل مني هذه الهدية كعربون أخوة أبدية»، لأردّ عليه: «قبلتُ هديتك التي سلبتْ لبّي، هل للخاتم حكاية؟»، (سْعِيد): «إليك حكايته بالمختصر المفيد: لقد عثرَ جدي على خاتم العقيق في عملية تنقيب في كهف في ولاية قريات، وكان قد وجد غيره من الأحجار النادرة في زمن قد فات»، (وليد): «إنّه إرث ومع ذلك تهديه لي، لقد زادت قيمته في عيني، شكراً لكرمكَ»، (سْعِيد): «لم أُهدِه لغريب، بل لأخي الذي لم تلده أمي، وما زلتُ مقصّراً في حقك».

خرجَ سْعِيد لأنفرد بهذه التحفة الجميلة، أخذتُ أتأمّله بحب، أخرجتُه من الصندوق ثم دعكتُ الحجر بملابسي لأنظر إلى لمعانه، فعلاً إنّه من النوادر.. لقد التحمَ الخاتم بإصبعي البنصر من اليد اليمنى، ثم استسلمتُ إلى النوم.

وفي نفس الليلة زارني الكيان في منامي، وكان هذا اللقاء الأول، الذي جمعني بأجمل مخلوقات الله، ماذا أقول في وصفها؟ لا شيء مثلها! ولا يمكن أن يُخلق جمال بعدها.. فتاة بيضاء ومن شدة بياضها تظنّ أنّها أنقى من الحليب المصفَّى، شعرها أسود ناعم كثيف لولبي الأطراف، منسدل على أكتافها وهناك خصلة مائلة على عينها اليمنى، عيناها زرقاوان بلوريتان جمّلتهما كثافة رموشهما السوداء، وجهها - قد أظلِمُه إن شبَّهته بالقمر المنير- دائري بسبب اكتناز وجنتيها الحمراوين، شفتاها حبتان من الكرز قد آن قطافهما، نقية الهيئة، تطوّقها هالة من النور المُشع.. لم تنبس ببنت شفة، لكنّ عينيها قد أخبرتاني بالشوق، وأرسلتا سحرهما إلى قلبي.

لم تنتهِ اللقاءات التي بدأت تلك الليلة، فغدت لقاءاتنا كل ليلة وفي كل حلم حتى تمكّن حبها من قلبي الذي خضع لها طامعاً في حبها، وهي بالمقابل لم تبخل عليّ بحبها الذي تملّكني، إلى أن أصبح اللقاء مع محبوبتي أمنية أرجوها من رب العالمين.. فكانت هي الكيان ذاته الذي يظهر لي بين الفينة والأخرى قائلاً: عند نقطة ارتكاز الضوء في الفتحة الثالثة لكن بعد الغروب، ليخبرني «أَمَا حان وقت اللقاء».

وقد سهّل الله لي المغادرة بعد اجتماعي مع التاجر حسين والذهاب إلى كهف مجلس الجن، وكنتُ في لهفة شديدة للانتقال إلى الفتحة الثالثة، ومع اقتراب الشمس من الزوال، سرتُ مبتعداً عن المجموعة إلى أن وصلتُ إلى المكان المعهود في الزمن الموعود، انتظرتُ مرتجفاً بسبب دقات قلبي التي تظهر ذبذباتها من ثوبي. غابت الشمس بشكل كليّ ومع غيابها انبثقَ النور من مكان قريب،

وأخذتْ بالاقتراب مني بغنج وبدلال لم أرَ مثلهما في حياتي، وثوبها الأبيض يرفرف خلفها وقد ستر كل شيء إلا مفاتنها، مدّت يديها لي لأضع يديّ في باطن كفّيها ويلتهب جسدي من ملمسها.

(الفتاة): «حبيبي وقرة عيني ومُهجة فؤادي وأمنيتي الوحيدة في هذه الدنيا»، (وليد): «لا أصدق عيني، الحمد الله الذي جمعني بحبيبتي «سلمى»، (سلمى): الحمد الله الذي قدّر لي أن أجتمع بكَ، هل أنتَ مستعد للدخول إلى عالمي؟»، (وليد): «مستعد بقلبي وكياني للدخول إلى قاع قلبك».

وضعت (سلمى) يدها على عيني وتمتمت بكلماتها كأنّها لحن يحّرك الوجدان، أبعدت يدها ثم قالت: «انظرْ حولكَ»، فتحتُ عيني لأجدَ عالماً مختلفاً عن عالمي»، (سلمى): لا تخفْ فأنتَ في نفس الموضع، كل ما في الأمر أنّني قد كشفتُ عنكَ الستار المحجوب، لتنظر إلى كهف مجلس الجن الحقيقي، الآن أنتَ تنظر إلى الحقيقة بأم عينك.. إلى عالم الجن، وأصبح لديكَ قدرتهم ذاتها على الرؤية، حيث إنّكَ تنظر إلى البشر ولا ينظرون إليكَ إلا بعد أن أُعيدكَ إلى ما كنتَ عليه بطُلسمي».

مازلت ممسكاً بيد سلمى وأنا أنظر حولي بذهول، بالفعل إنّه كهف مجلس الجن، لكن ليس بهيئته الأولى، حيث إنّ هناك الأنهار التي تنزل من الفتحات الثلاث، وتجري إلى مستقرها وسط الكهف، وهناك بحيرة خلابة تنبعث منها رائحة الرطوبة مصحوبة برائحة الياسمين المنتشر حولها.

ولم يكن هناك حوائط، بل بيوت نُحتت عليها أشكال هندسية مبهِرة، أبوابها عبارة عن ستار من جلود الحيوانات والشبابيك مرصعة بالأحجار الكريمة، الورود في كل مكان، الحيوانات التي كانت تلهو هنا وهناك معظمها بيضاء اللون. رحتُ أنظر إلى الجن الذين يجتمعون حول البحيرة بأشكالهم المختلفة، فمنهم الطويل جداً بيدين تصلان إلى الأرض، ومنهم القزم ذو الرأس الكبيرة، وهناك ذو العين الواحدة ومنهم ذوو عيون موزعة حول رؤوسهم، جميعهم يعيشون في سلام في حياة رتيبة خالية من ذبذبات القلق.

مشينا حول البحيرة العظيمة وكانت الأرض عبارة عن حشائش تلتمع بسبب الكم الهائل من الأحجار الكريمة التي برزت من بينها. وصلنا إلى منزل ما بين الفتحة الثانية والثالثة، أزالت سلمى جزءاً من ستارة الباب، ثم قالت: «ادخُل إلى منزلكَ يا قُرة العين، دخلتُ فإذا به منزل فخم عظيم المساحات، لم أتوقّع أن يكون بهذا الحجم الكبير، غُرف واسعة، والشمعدانات المضيئة منتشرة في الأرجاء، وهناك الكثير من جلود الحيوانات المنتشرة في أركان البيت، بعضها يُستعمل للزينة والآخر للجلوس أو للنوم.

(سلمى): «الآن عليكَ بالراحة يا مهجة القلب ويا من له القلب ينبض ويعشق، هناك على الطاولة كل ما تشتهيه نفسكَ.. أنا راحلة على أن نلتقي فيما بعد»، (وليد): لا أريد أن أُرهقَكِ.. لكن لا تغادري، فقلبي ما زال يرتوي بحبكِ، وعيناي لم تكتفيا بعد من رؤية جمالكِ»، (سلمى): «سوف أغادر وذلك لأمر متعلّق بكَ وسأعود في أقرب فرصة».

رحلَ القمر وبقيتُ وحدي في ظُلمة الليل وهدوء البيت الذي يحتويني، أكلتُ من أنواع الثمار التي زيّنت الطاولة بألوانها المتداخلة، ثم توسّدتُ فراء الحيوانات وغرقتُ في سبات، وكان أوّل سبات لا يجمعني بمحبوبتي. عند الصباح فتحتُ عينيّ لأجد سلمى جالسة بجانبي تنظر إلى وجهي، ممّا أفزعني للوهلة الأولى ثم غمرتني السعادة لوجودها قربي»، (سلمى): صباح الخير يا مَن جمّل الدنيا في عيني»، (وليد): صباح لا يكتمل إلّا بكِ، قبل أن تهمّي بالمغادرة مرة أخرى أريدكِ لي خليلة، رفيقة حياة، زوجة إلى أن أغمض عيني مودعاً هذه الدنيا.

(سلمى) وقد امتلأ جفناها بالدموع: أسعدتَ قلبي بكلماتكَ، غيابي عنكَ في الأمس كان بهدف التمهيد للقائكَ مع والدي، وإذا كانت هذه رغبتكَ فعلاً، فأنا موافقة على طلبكَ مقدماً، فأنا حبيبتكَ منذ حلمكَ الأول، فلم أكن في أحلامك فتاة من الخيال، بل حاضرة بنفسي وببدني.

لبستُ قيافتي ثم مدّت سلمى يدها، لتمسك يدي ونخرج وكأنّنا بِتنا زوجين فعلاً، نظرات المّارة كادت أن تمزقنا لكنّنا لم نكترث إلا باللحظة التي نعيشها ونحن مع بعضنا، بانَ في الأفق قصر عظيم البنيان، أشبه بالقصور الفكتورية بسبب القبب المنتشرة على سطحه، والنوافذ الزجاجية بإطاراتها المزركشة من الذهب الأبيض، وتماثيل الجن التي صُفّت على طول الممر المؤدي إلى بوابته الضخمة.

دخلت سلمى وكان هناك جُند مكلّفون بانتظارها عند البوابة، فلمّا رأوها انحنوا احتراماً لها، (وليد): «هل تسكنين هنا؟»، (سلمى):

«نعم، والدي الذي سوف تقابله هو الزعيم «هفيف بن مقلاص» زعيم قبائل العالم السفلي الجنوبية»، (وليد): ابتلعتُ ريقي فتوقّف عند تفاحة آدم مما جعلني أسعل بقوة، فأخذت سلمى تمسح على ظهري: أبوكِ هو الحاكم بعينه!

أكملنا مسيرنا وبدا على جسدي الارتجاف والارتباك من هذه المقابلة، تخطّت أقدامنا عتبة القصر الذي لا يمكن وصفه لأنَّه لا عين رأت مثله ولا أذن سمعت.. أنواع الأحجار الكريمة منتشرة على الحوائط تلمع مع أبسط نور يلامسها، وهناك فنّ عريق قد توزَّع في السقف على مرأى البصر مرسوم بألوان تُسعد الناظرين. وقفت (سلمى) مقابل الحاجب الذي وقفَ كالحاجز مقابل بوابة عظيمة: «أين أبي؟»، أجابَ (الحاجب) وهو يرفع ذقنه ذا الشعر الأبيض بطريقة متعالية: إنّهم ينتظرونكِ في الداخل منذ زمن، فوالدكِ رفض أن تبدأ جلسة النقاش من دونكِ مولاتي، هل سيدخل البشري معكِ؟، (سلمى): «نعم»، أصدرَ الحاجب فرقعة بإصبعيه فاختفى الباب ليصبح ممراً للعبور، أمسكت (سلمى) يدي ودخلنا إلى قاعة ضخمة تلتها بوابة مفتوحة، قالت لي: اجلس هنا وسوف أدعوكَ إلى الدخول بعد الانتهاء من اجتماع مجلس الجن الشهري، (وليد): «ألهذا سُميّ الكهف بمجلس الجن؟»، (سلمى): «نعم وسوف أوضّح لكَ كل شيء فيما بعد، أتأذن لي بالانصراف يا قُرة العين؟»، (وليد): «ن.. نعم، كيف لأميرة أن تستأذنني للمغادرة؟، فعلاً لا مقامات في الحب! بل إنّه يقاس بكمية المشاعر والعطاءات و التضحيات، فهي التي تجعل لكَ مكانة فوق عرش القلوب».

جلستُ على كرسي مقابل باب غرفة المجلس، لأشاهد من بعيد طاولة ضخمة تجلس حولها كيانات غريبة المنظر، لا يوجد شبه بينهم في أعضاء الجسد ولا الوجه ولا حتى اللون، وهناك كان والد سلمى الزعيم «هفيف» جالساً بشموخ على رأس الطاولة، منصتاً لما يقولونه بلُغاتهم المختلفة، لكنّ عيني ارتكزت على زهرة قد هاجَ رونقها بين الجموع، وهي حبيبتي التي نُقش خاتمي باسمها.

انتهى المجلس وبدؤوا بالمغادرة وهم ينظرون إليّ نظرات كالشرر المتطاير، صوت جهوري نطقَ باسمي لينتشر صداه في فراغ المكان، وقفتُ فعدّلتُ هندامي وتحرّكتُ بهيئة خارجية ثابتة الخطى، لكنّ دقات قلبي قد فضحتني من شدة الخوف.. وألقيتُ السلام، فردَّ الزعيم (هفيف) السلام.

وبدأ الزعيم بالكلام قائلاً: «لقد أخبرتني سلمى بمدى حبها لكَ، وبأنّكما على وفاق منذ زمن، وكما تعلم نحن قوم مسلمون وإن كُنا زعماء لمختلف الديانات، ونحكم بما حكم الله به، فإن كانت لكَ رغبة في ابنتي فعليك بعقد النكاح»، (وليد): ومن أجل هذا أنا أجلس أمامكم وأطمع بموافقتكم على قبول زواجي من ابنتكَ»، (هفيف): حسب إفادة سلمى فإنّها موافقة وها هي أمامكَ وقد احمرّ وجهها من فرط السعادة، سأدخل في صلب الموضوع من دون أي مجاملات، وذلك لضيق الوقت بسبب مهامي الكثيرة».

تابعَ (هفيف) حديثه: «موافقتي مرتبطة بموافقتكَ على الشرط الذي من خلاله يتمّ عقد نكاحكما.. وهو أن يتمّ إدخالكَ في طقس تغيير كيانك البشري إلى جن مهجَّن». فغرتْ فمي من هول ما

سمعتُ، قامَ هفيف وسار مبتعداً عن المكان وتركني مع سلمى ننظر إلى بعضنا في بلاهة.

خرجنا على مضض، أسير وخلفي سلمى هائمين على غير هدى، قادتنا خطواتنا إلى المنزل، دخلنا وما زلنا متسمّرَيْن مقابل بعضنا في محاولة لاستيعاب شرط هفيف»، (وليد): «ما قصْدُه بجن هجين؟»، (سلمى) محاولة إخفاء دموعها: «هو الجن المتحوّل من صفته الأساسية إلى كيان الجن، يتمّ ذلك من خلال طقس مُعقّد لمدة سنة كاملة، فيأخذ هذا الكيان كل خصائص الجن، مع بقاء ذاكرته السابقة وكل ما تعلمه حينها، وكذلك عند التجسد إذ إنّه يتجسّد على هيئته الأولى.

تابعث (سلمى): أنا موافقة على قربكَ وإن كان من دون زواج، لكن لا تأخذ قراراً من الممكن أن تندم عليه فيما بعد. الآن يجب تفعيل العقل وتعطيل القلب لكي يكون قرارك سليماً». (وليد): «اتركيني الآن يا سلمى، أحتاج أن أكون وحدي».

(خالد): «والدي، لم تأكل معنا ولم تنمْ والآن لم تشرب من القهوة التي أعددتُها! جُل نظراتكَ منصبة على الجمر الملتهب، لقد قبلتَ أن تتحوّل وأنتَ الآن متجسد بهيئتكَ الأصلية.. (وليد): « لقد قاطعتني.. خيراً فعلتَ، لكيلا نخوض بتفاصيل تطيل عليكَ الحاجة إلى المعرفة. نعم قبلتُ بعد أن نلتُ حصتي من خلوة دامت لأسابيع، فذهبتُ مباشرة إلى والد سلمى من دون علمها لأخبره بموافقتي على شرطه، ومن ثم دخلتُ طقس التحول الذي كان عنيفاً بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

بعد سنة تمَّ زواجنا أنا وسلمى، وعشنا بحب في كل ثانية تمضي لتصبح ماضياً ذا ذكريات جميلة ما زلنا نصنعها إلى وقتنا هذا، وأصبحَ لكَ أخٌ ثالث يا خالد»، (خالد): هناك عاصفة تدور في رأسي، لا أدري أأفرح لفرحك أم أغضب لقرارك؟!»، (وليد): «سبب رجوعي إليكم هو حبي لكم ورغبتي في قربكم ما حييت، ورضيتُ أن أعيش حياتين لكي أوَفّق بين زوجتيّ من عالمين مختلفين»، (خالد): وأين زوجتكَ سلمى الآن؟، (وليد): كما ترى خاتمي العقيق قد انتقل من يميني إلى يساري، عندما كان في اليمين كانت خليلتي التي لم تفارقني يوماً في أحلامي، وعندما انتقلَ إلى يساري غدت زوجتي وهي معي أينما ذهبتُ، ساكنة في هذا الخاتم.

وحتى تكتمل أركان القصة التي أوضحتُ لكَ جميع جوانبها، فإنّ هذا الخاتم الذي ساقه القدر إليّ، كان من أحد السحرة الذي حاول ربط سلمى داخل الخاتم انتقاماً من والدها، وما إن سقط في يدي وأحببتُ ساكنته، حتى أعتقتُها فعادت لتسكنه بإرادتها، ومن شدة حزن والدها على فقدها في اليوم الذي ربطها الساحر فيه، أصبحَ اسم المكان الذي يضم الكهف «هضبة سلمى».

أما الأساور الفضية فهي دلالة على أنّني من الجن المهجَّن الذي يحمل في جعبته علم الإنس والجن، فأصبحت وظيفتي في عالم الجن أن أكون المستشار الأعلى لشؤون الإنس للزعيم «هفيف بن مقلاص». وأما نسيان مجموعة البحث عن الأحجار تفاصيل لقائنا بسبب طلسم النسيان الذي ألقته سلمى عليهم بعد موافقتي على طلب والدها.

(خالد): «وأين ولدكَ؟»، (وليد): «ما زال إلى جانبكَ متلهفاً كي يُحضِنك، أتسمح له بذلك؟»، (خالد) من بعد سكوت طويل، نعم.. (وليد): «يا «جمشت»(10)، اظهرْ لأخيك..». ظهرَ بجانبي طيف جميل المحيا، شبيه بالبشر لكنّ لونه شديد البياض بأذنين طويلتين وعينين واسعتين، ينظر إليّ بابتسامة جميلة متناسقة مع وجهه الصغير، احتضنني بشدة ولم أجد نفسي إلّا خائر القوى أمامه فبادلته الاحتضان.

******

وبهذا تنتهي قصتي مع قبولي أن أكون شريكَ والدي في حمل أعبائه التي أثقلت صدره ليعيش بسلام ما بين بيتَين من عالمَين مختلفين. (سعود): قصتكَ غريبة بحق، لكن السؤال الذي يجول في عقلي وأعتقد أنّه يجول في عقول الحاضرين كذلك: هل أخوكَ معنا في القارب الآن؟، (خالد): نعم.

انتفضَ الجميع مندهشين، ممّا سبّب اختلال توازن القارب، (خالد) مقهقهاً: على رسلكم، إنّني أمزح فقط.. لا ليس معنا، بل مع والدته في كهف «مجلس الجن».

---

(8) حجر الأوبال الناري: يتكون الحجر من هياكل بلورية من كرات السليكا كبيرة الحجم، ولذلك تظهر بدرجات اللون البرتقالي والأصفر والأحمر، يتواجد في المكسيك، وتم اكتشافه في سلطنة عُمان، وتتراوح أسعاره من 10 دولارات وقد تصل إلى 10,000 دولار للقيراط الواحد.

(9) حجر الأكوامارين: حجر ذو جمال استثنائي لشكله الكريستالي بلونه الأزرق الفاتح الشبيه بلون مياه البحر، ولذلك سمي «الأكوامارين». يتواجد في أماكن عديدة مثل البرازيل والهند وأستراليا ومؤخراً في سلطنة عُمان، تتراوح أسعاره من 90 دولاراً إلى 240 دولار للقيراط الواحد.

(10) الجمشت: من الأحجار الكريمة الأرجوانية الخلابة.

القصة الخامسة يرويها

«الجميع»

(كيان إيكاروس)

تعريف الوحش: إنسان..

خرج الطفل الدامي مهرولاً خلف كُرته إلى وسط غرفة المعيشة، مُخلفاً وراءه خطوات مطبوعة بالدماء اللزجة، وهو يزمجر تارة ويضحك تارةً أخرى، إلى أن نظر إلينا ثم رحل إلى غرفة أخرى لتتلاشى ذراته وسط ظلام الليل.. تركنا في رعشة الرهبة وسط تساؤلاتنا: «ما هذا الكيان!»

******

«سعود»: انصبّت الأنظار نحوي ورفاقي ينتظرون مني أن أحكي قصتي التي كنتُ أراجعُها في مخيلتي لكي أقصَّها بمستوى تشويقي لما حدث على الحدود الكويتية، والدّابة المرعبة التي ظهرت لنا هناك، لكن قبل ذلك أخبرتْ شعبان أنّ علينا أن نغيّر المكان إلى مكان آخر لعلّ الله يرزقنا منه الخير الكثير، لقد بدأت علامات الجزر بالظهور، وفي هذه البقعة المائية يندر ظهور الأسماك الكبيرة حين الجزر.

حاول شعبان أن يُشغّل المحرِّكين، فكانَ الثاني يكابد بهديره لكي يعمل مرغماً، لكن بعد محاولات جمّة استسلمَ وفارق الحياة، حيث إنّ الأول كان قد توفِّي منذ بداية التشغيل. ووسط نظرات الخوف

التي تنتقل من عين إلى أخرى، قام شعبان وفتح غطاء المحرك لإجراء الجراحة المستعجلة، أخرجَ يديه التي التحفت بالسواد بسبب الشحم الذي غطّى أجزاء المحركات الداخلية، ليُعلن للجميع بكل أسَف وقت الوفاة الفعلي للمحرِّكيْن.

(سعود) الذي صُبغَ محيَّاه بالحُمرة الغاضبة: شعبان «قُل خيراً أو اصمُت»، (شعبان): «بالفعل، إنَّ المحرِّكيْن قد تعطّلا ولا يوجد لهما حل في الوقت الحالي، ما عدا استبدال القطع من الوكيل»، (سعود): «يبدو أنّ علينا أن نخاطب شرطة خفر السواحل لكي ينقلونا إلى بر الأمان، يا شعبان: شغّل جهاز المُناداة اللاسلكي». نكَّسَ (شعبان) رأسه خجلاً: لقد أخبرتُكَ منذ شهر، لا يوجد لدينا جهاز مناداة، لأنَّ عمّكَ «محمد» قد أخذهُ ولم يُعِدْهُ حتى الساعة.

سكتَ الجميع مفكرين بالحلول المتاحة، لكنّ الغضب حجب عقولهم عن التفكير. (سالم): «أرى أن نُجدّف إلى ساحل جزيرة مسكان وننتظر حتى يحين الصباح لعلّ أحد الصيادين ينقذنا من هذا المصاب»، (خالد): «أقربُ ساحل إلينا هو ساحل جزيرة مسكان، لكن لا حياة فيها ولا مأوى!، أرى أن نشدّ الرحال إلى جزيرة فيلكا وإن كانت أبعد في المسافة، لكنّ مستوى الأمان أعلى».

(سعود): «أنا مع خالد، لا تنسوا أنَّ والدي يملك منزلاً هناك، لذا يمكننا أن نستخدمه حتى الصباح وبالتالي نفكر في الحلول المتاحة». اتّفق الجميع بعد المشاورات ليتمّ إخراج المجاديف والتوجّه إلى جزيرة فيلكا، مع التبادل المستمر في التجديف إلى أن انقضى من الوقت ساعة ونصف. نزلَ الجميع لسحب القارب وربطه

بأحد الصخور الجانبية مع مراعاة الابتعاد عن أي شيء من الممكن أن يُتلفه.

حملنا جميعاً مستلزماتنا والأسماك التي اصطدناها وقوارير المياه المتبقية، ثم مشينا متوغلين في جزيرة فيلكا المظلمة. (سعود): «جزيرة فيلكا كانت مأهولة بالسُكان حتى سنة ١٩٩٠م لينتقلَ أهلها إلى داخل المدن المتحضرة في الكويت. لقد كانت محطّة تجارية هامة فيما سبق، وأهميتها الكبرى تتمثل في الآثار التي ما زالت الحكومة تكتشف بعضها بين حين وآخر، قوارير وعملات معدنية وأعمدة من العصر اليوناني ما قبل الميلاد». (سالم): هذا ما ينقصنا الآن!، لا نريد محاضراتكَ في التاريخ، لنذهب ونأخذ قسطاً من الراحة بعد هذه الرحلة المشؤومة.

أردفَ (سعود) بعدم مبالاة بمَن حوله: تبدو حاراتها كحارات أهل الكويت، شوارع إسفلتية وبيوت مصفوفة بجانب بعضها يسكنها الكويتيون الذين تمت تسميتهم بـ «الفيلكاوية» كناية إلى جزيرة فيلكا، ويمتازون بأخلاقهم الدمثة وبعشقهم للبحر وخيراته.

وفي طريقنا مررنا بجانب المنتجع الراقي الذي بُني مؤخراً على نمط تراثي من حقبة الخمسينيات، لندخل المنتجع على هيئة العبور في الزمن من العصر الحالي إلى زمن الأجداد.

بناءٌ خلاب لبيوت طينية يظهر على جوانبها ميازيب خشبية لتخليص الأسطح من ماء المطر، لتكون في عصرنا الحالي شاليهات عائلية. اقتربنا من بوابة المنتجع التي تمَّ إغلاقها بإحكام وذلك

لحماية القاطنين بين أسواره.

اتجهنا إلى داخل الجزيرة على أن نعود إلى المنتجع في الصباح لعلّهم يرسلون إلى خفر السواحل طالبين إنقاذنا من هذا المصاب، أو نعود أدراجنا إلى الكويت من خلال العبّارة التي تنقل الوافدين إلى المنتجع، بعد أن يَسمح لنا القبطان بالركوب على ظهرها، وهذا احتمال ضعيف بسبب الإجراءات الأمنية.

سِرنا ونحن نهيم بأفكارنا إلى أن مررنا بجانب القلعة الهلنستية، ليرحل خيالنا بشكل القلعة الحقيقي قبل الميلاد، عندما كانت هذه الجزيرة جزيرة يونانية تُكنّى بـ «جزيرة إيكاروس»(11).

توغلنا إلى داخلها سيراً على الأقدام، هناك سيارات قديمة من زمن التسعينيات وأخرى من الثمانينيات مركونة بجانب البيوت المظلمة، وجَّهنا كشافات هواتفنا إلى بعضها لنرى آثار الطلقات على الأسوار والحوائط والزجاج المهشم على الأرض حول البيت، وذلك من آثار الغزو، وبعضها ناتجة عن تدريبات قوى الشرطة والجيش بالذخيرة الحية.

من المفترض أنّ هناك الكثير من الأشجار بجانب البيوت، لكنّ أغصانها قد تيبّست بفعل الزمن، ثم أضافت لمسة الرعب في أرجاء المكان، تعبر من خلالها نسمات الريح، ليخلق الاحتكاك الصفير الذي لعب دور المؤثرات الصوتية التي زادت دقات القلب رُعباً.

مررنا بمدرسة فأشار إليها (سعود) ثم قال: «كنتُ أحد طُلاب تلك المدرسة في يوم من الأيام، انظروا إليها كيف غدت وكأنّها بيت

للأشباح!، مظلمة، كئيبة.. ما أنظر إليه يُحزن قلبي، كيف كانت هذه الجزيرة عامرة بالأمن والأمان، كان أهلها متكاتفين متحابين، والآن أصبحت مرتعاً للمهربين أو لزائرين يبحثون عن الاستجمام في شاليهات المنتجع.

(سالم): «كيف لنا أن نبيت هنا؟ المكان يذكّرني بالجزيرة الحمراء بظلامها الحالك وأسرارها المخفية، أرجو أن يخيب ظني ولا أرجع وأعيش الأحداث ذاتها مرة أخرى»، (يوسف): «هل منزلكَ بعيد؟ لقد تمكَّن منا التعب»، (سعود): «بل إنَّ منزلنا هناك». وأشارَ إلى المسجد ذي القبة المهشمة، وتحديداً إلى المنزل الكبير الذي يُفترض أن يكون لونه أزرق لكنّ لونه بهُتَ من الغبار والظلام الذي يحيطه.

اقتربنا من المنزل لنرى اللوحة التي وُضِعت بجانب الباب «منزل عبد العزيز سعود» مع الملاحظة التي وُضِعت أسفل اللوحة «ممتلكات خاصة يرجى عدم الاقتراب». توقّف سعود لينظر مندهشاً إلى اللوحة، سأله (خالد) بجبين مُندّى: «ما بكَ؟، أرجوك لا مزاح الآن، لا يوجد لدينا طاقة متبقية لمزيد من الرعب والمشاكل»، (سعود): «لا أذكر أنّ والدي قد وضع هذه اللوحة!».

(يوسف): «ماذا تنتظر؟، افتح الباب»، (سعود): «بل نريد أن نرى رشاقتكَ، لم أُحضِر المفتاح معي، اقفزْ من السور وافتحْ لنا الباب من الداخل لو سمحتَ». تعاونَ شعبان وسعود لمساعدة يوسف على تسلُّق السور ومن ثم فُتِح الباب ليدخل الجميع إلى الفناء الداخلي الذي أحاط المنزل من جميع اتجاهاته، وهناك بجانب المنزل بناء صغير الحجم اتجه إليه (سعود) وتبِعه أصدقاؤه.

«هذا الديوان الذي سوف نستغله حتى بزوغ نور الصباح، حجمه يسمح لنا بالتمدد في أركانه ويوجد بجانبه دورة مياه». دفعَ سعود الباب لينفتح بسهولة من دون الحاجة إلى فتح القفل، ثم فتحَ النوافذ ليدخل الهواء النقي، وأخرجَ من الدولاب قناديل زيتية ذات فتيلة لكسر حدة الظلام.

(سالم): «لا يوجد كهرباء هنا؟»، (سعود): «يوجد مولّد كهرباء حكومي لكن تمَّ تخصيصه للمنتجع فقط، ولمُلّاك البيوت هناك مولدات متنقلة للاستخدام الشخصي يتمّ استخدامها عند زيارة الجزيرة، لكن لا أعلم أين وضع والدي المولّد، لذا علينا أن نرضى بما عندنا الآن ونأخذ قسطاً من الراحة حتى الصباح لعلّ النور يأتي معه الخير».

اتَّخذ الجميع مواقعهم في أرجاء الديوان مفترشين الأرض ليتسلل الاسترخاء تدريجياً إلى أجسادهم، لكن رحلت العقول إلى العصف الذهني تدور في خِضم المجهول الذي يواجهونه.. هدوء شديد، ظلام محيط بهم من جميع الاتجاهات وهناك قنديل نور يكافح الظلام وحده.. لا صوت إلّا من نسمات تأتي من العدم لتخلق المزيد من الرهبة، بسبب دفعها للأغصان فتجبرها على الاحتكاك بالحوائط، ثم تحمل بيدها أوراق الأشجار المتيبّسة لتنقلها من موقع إلى موقع آخر فقط للتلاعب بمشاعر الخوف التي تمكّنت منا.

بعد مرور نصف الساعة على هذا الوضع وبينما يحاول الجميع النوم من دون جدوى، جلسَ سالم على الكنبة التي كان يلقي ظهره

عليها لينظر من النافذة إلى الفناء الداخلي، هناك شجرة من أشجار السدرة العملاقة التي ظللت الفناء والكثير من أوراقها قد سقط أسفل منها، يدور بزوبعات يافعة، وهناك أرجوحة قد تدلّت حبالها من على غُصنها، ووضِع في نهايتها كرسي من الجلد قد هَرم من حرارة الشمس.

كانت الأرجوحة تتمايل مع مرور الريح وعين سالم مركّزة عليها، لكن عقله في مكان آخر.. بعد برهة بدأ تمايلها يختلف وكأنّ هناك من جلس عليها وبدأ يتأرجح ببطء، وراحت تتقدم إلى الأمام ثم إلى الخلف مع زيادة الوتيرة في كل تقدم، إلى أن أصبح الأمر غير طبيعي البتة.

استعاذَ بالله من الشيطان الرجيم، ثم أولى النافذة ظهره ليتحاور مع عقله لإقناعه بأنّ ما رآه محض أوهام، لم يطُل الأمر كثيراً حتى تحوّل الوهم إلى حقيقة، اعتدلَ (شعبان) فجأة لينظر إلى النافذة ويشير بسبابته: مما ههذا؟!، بسرعة رفع سالم رأسه لينظر خلفه ليرى امرأة سوداء واقفة خارج النافذة بجمود، لا يظهر منها شيء بسبب العباءة التي غطّتها من رأسها حتى أخمص قدميها.

قفزَ من مكانه ليتخذ زاوية الغرفة مخبأ من هذا الكيان، نظر الجميع بذهول مع عدم الفهم.. (يوسف): «سعود ما هذا؟»، الجميع يرجون الله في دواخلهم أن يكون رد سعود بأنّها واحدة من أهله أو من جيرانه، (سعود) بمحجرين كادا أن يلفظا عينيه: لا أعلم!

ما زالت المرأة واقفة بجمود وهم ينظرون إليها بفزع، لو أنّها

صرخت لتوقّفت قلوبهم في حينه، لكنّها لم تصرخ لأنّ هناك صوتاً ضئيلاً قد خرج من العدم، فرقعات طبول.. زادَ الصوت، زادَ أكثر، وكأنّ هناك فرقة شعبية تعزف لحنَ السامري، هنا تحرّك الكيان وبدأ يتمايل.. ابتعد الكيان الأسود عن النافذة ليتخذ من الفناء مسرحاً للرقص.

تتمايل يمنةً ثم يسرةً ببطء متماشية مع إيقاع الطبل، حاولنا ذكر الله لكن أبى الهواء أن يدخل إلى أجسادنا ليُعيننا على النطق. توقفت الطبول عن العزف، مشى الكيان إلى الباب ليخرج بسلام.

(سالم): «ألم أقُل لكم لا أريد أن أعيش ما عشتُه في الجزيرة الحمراء؟ أريد أن أخرج من هنا في الحال»، (خالد): «إلى أين سوف تذهب؟ إذا ظهر هذا الكيان هنا فمن الممكن أن يظهر في أي مكان آخر»، (يوسف): «بل من الممكن أن يكون غرضه الرئيسي هو استدراجنا إلى الخروج»، (سعود): «اذكروا الله فلا شيء فوق قدرته سبحانه»، ردّ (شعبان) مرتجفاً: انتهينا من الميز وبدأنا قصة جديدة الآن!

اقتربنا من بعضنا لنتلو القرآن ونسبِّح الله ليحفظنا من شرّ خلقه.. سُمِع صوت ارتطام حصى على زجاج النافذة، سمعناه لكنّنا لم نكن نريد أن ننظر نحوه، وبقينا على نفس الوضعية، ارتطام آخر.. ثم آخر، اقتربنا من النافذة لنلقي نظرة سريعة مع كامل الحذر، لا شيء هناك! (يوسف): «انظروا إلى طرف باب المدخل الرئيسي».. كان الباب مفتوحاً وهناك نصف رأس طفل برزت عيناه منه بغموض!

وجّه الجميع أنظارهم إلى الطفل الذي ظهر نصف وجهه الأحمر، بينما كانت عيناه البيضاوان تنظران إليهم بغضب وكأنّه يقول لهم بكل اختصار «الويل لكم، لقد اقتربَ الأجل». (سعود) بغضب: «لا أصدق ما يحصل!، هناك أمر لا يقبله عقلي». همّ بالخروج من الديوان لكنَّ (سالم) منعهُ قائلاً: الشجاعة ليس بكل موقف تطلقها، أحيانا تكون طريقك إلى الهلاك، انتظر ولا تخاطر بحياتك.

وبينما هُم في نقاشهم بين الشدّ والجذب لتهدئة سعود، الذي اتَّخذ من الغضب حلاً لمشاكله متناسياً الحكمة المطلوبة في هذه المواقف بالذات، سمعوا صوت ضحكات تنطلق خلفهم، فتوجّهت الأنظار إلى الطفل الذي كان مختبئاً والآن غدا في نصف الفناء يقطر لزوجة من رأسه بسبب الدماء القانية التي ترغمها الجاذبية على النزول إلى الأرض.. هناك دماء تغطي سائر أجزاء جسده العاري، وبين يديه سكين ترتفع في الأعلى ثم تهوي على بطنه، وفي كل مرة تدخل في جوفه يُطلق ضحكات ساخرة بصوت مجلجل تهتز معهُ القلوب من هذا المنظر المقزز والمؤلم في نفس الوقت.

اقتربَ الطفل من زجاج النافذة وبدأ يطرقه بأطراف أصابعه ومع كل طرقة تتطاير ذرات الدماء على الزجاج. (خالد): «يبدو أنّه يريد أن يقول شيئاً»، (شعبان): «إيّاكم والإذعان إلى طلبه، لا تفتحوا النافذة أرجوكم!». فتقدم يوسف وفتح طرفها من دون أن يلتفت إلى النقاش الدائر حوله، ألصقَ (الطفل) وجهه بالفتحة الصغيرة المنفرجة من النافذة، ثم قال بصوته الطفولي: دنا أجلكم!

رجعَ صوت الطبول يصدح في الأرجاء، انفتح باب المنزل وخرج

الكيان ملتحف العباءة السوداء من داخله، متقدّماً باستقامة مرعبة إلى الطفل، ليمسكه من يده ثم يقوده إلى داخل المنزل ويغلق الباب، ليحلّ الصمت محل الصخب.

كاد يوسف أن يتكلم، فقال (سالم): اصمتوا جميعاً وأنصتوا.. أنفاسهم متسارعة مع تسارع دقات القلوب، وجّهوا تركيزهم إلى حاسة السمع، لتلقط آذانهم ذبذبات الخطوات التي تأتي من سقف الديوان، تحوّلت الخطوات إلى ركض فتهاوى الغبار العالق حول هالة النور المنبعثة من القنديل.

(خالد) بهمس: «انظروا..» دخلت فتاة صغيرة تجر خلفها قدمها العرجاء بكل هدوء وخفّة إلى فناء المنزل ووقفت في المنتصف، لا يظهر وجهها بسبب شعرها اللزج المسدول على وجهها، بدأت النسمات تداعب ثوبها الذي بهُتَ لونه بفعل الزمن، تدلّى من يدها دبّ قطني مقطوع اليد إلا من خيوط ما زالت صامدة، أولَتهم ظهرها الذي رسمت الدماء خطوطاً عليه، وكأنّ هناك من ضربها بسياط من نحاس مسنون.

عَرَجت إلى أن وصلت إلى طرف الأرجوحة، ثم وضعت دُبّها وذهبت خلفه لتدفعه بإيقاع بطيء، ليُظهر الاهتزاز نغماً مرعباً قادماً من جذع غصن الشجرة التي تدلّت منها حبال الأرجوحة. قال (خالد) وقد صرّ على أسنانه بقوة: «لقد ضِقتُ ذرعاً من هذا الهرج..» لم يكد يُكمل جملته وإذ بيوسف يتّجه نحو الباب ليفتحه.. أخذت الفتاة دُبّها وعرجت إلى أن غادرت فناء المنزل إلى الشارع.

خرجَ خلفها يوسف وتبعه سالم وخالد من فناء المنزل إلى الخارج، وهم ينظرون يمنةً ويسرةً بحثاً عن الفتاة التي توارت عن الأنظار، عادوا مرة أخرى ليحتدّ النقاش بين أفراد المجموعة. (يوسف): «إن ما يحدث غير منطقي، أريد أن أدخل إلى قلب المنزل إنْ أذنتَ لي يا سعود»، (خالد وسالم): «وأنا مع رأي يوسف»، (شعبان): «استعيذوا بالله وابقوا هنا حتى يحين الصباح فنغادر هذا المكان الملعون بسلام». لم ينبس أحدهم ببنت شفة لمدة من الزمن وقطرات العرق تُندِّي محياهم.

خرجَ سعود من دون أن ينطق، فتبعهُ يوسف ثمَّ الباقون ما عدا شعبان الذي يتقدّم خطوة ويرجع اثنتَين، ثم حسمَ أمره ولحق بهم. وقف الجميع مقابل باب المنزل محاولين فتحه من دون جدوى، فرجعَ سعود خطوة تسمح له برفع قدمه ليفتح الباب عنوة بضربة تعالى صداها في أرجاء الفراغ.

دخلوا إلى غرفة المعيشة التي كانت فيها كنبات مغطاة بالأغطية البيضاء للمحافظة عليها من الغبار، حسب آخر زيارة لسعود وأهله. لكن أين الأغطية الآن؟، الكنبات مكشوفة! هذا الحديث الذي عصف بذهن سعود حينها، وقفوا وسط غرفة المعيشة لينظروا في أركان المنزل الذي بُنيَ على طراز السبعينيات، حيث إنّ غرفة المعيشة في الوسط، بينما تطلّ عليها جميع غرف المنزل، أينما تُولي وجهكَ تجد باباً يؤدي بك إلى غرفة أو مطبخ أو دورة مياه.

تقدّم سعود مستعيناً بالقنديل الذي في يد خالد ليبحث في الأدراج، أخرجَ الشموع ووضع في يد كل واحد منهم شمعة أضاءت

محيطه، فُتح باب إحدى الغرف فتعالى صريره لتنتفض أجساد المجموعة ممّا هو آتٍ.

خرجت الفتاة العرجاء تجرّ خلفها دبّها القطني، تسير على غير هدى لتمر من قربهم وهي تصدر أنيناً مع كل زفرة، فُتح باب آخر لتدخل الغرفة التي تقابلها مع جمود أجسادنا التي تحجرت في مكانها.. تدحرجت كُرة مطاطية من نفس الغرفة التي دلفت إليها، خرج الطفل يلهث للحاق بالكُرة مخلفاً آثار الدماء من قدمه التي وطأت الأرض، ما زال الطفل يقطر دماً.. أمسكَ كرته ليضحك ضحكة مجلجلة لا تناسب عمره، ثم دخل الغرفة التي خرجت منها الفتاة وأغلقَ الباب خلفه بكل قوة فضجّ المكان بصدى الارتطام.

(خالد) بهمس: إنَّ ما يحدث خارج حدود المنطق.. لم يُكمل جملته بسبب الطبول التي تُقرع من مكان بعيد. بحثت الأعين عن مصدر الصوت، فنظروا جميعاً إلى مدخل الباب الرئيسي، كيان العباءة يكمل رقصته في الفناء، اقتربت الطبول منهم وكأنّ كل فرد من أفراد الفرقة في غرفة من الغرف المحيطة، وراحت تعزف بشغف وصلَ حماسه إلى جسد الكيان الذي يتمايل طرباً.

التصقنا ببعضنا حتى غدونا كتلة واحدة متسمرة في ركن غرفة المعيشة، لأنّ الكيان دخل إلى وسطها، وما زالَ يرقص رقصة السامري. صرخَ (شعبان) بتلعثم: انظروا إلى قدمه.. قدم ماعز!، توقّف كل شيء ليسير الكيان بخطوات مسموعة إلى خارج المنزل.

«هذا يكفي!» قالها (يوسف)، ثم همسَ في أذن كل شخص من

المجموعة فاستنكر بعضهم، لكن عندما نفّذ سالم وسعود ما طلب يوسف، نفّذ الباقون التعليمات التي تلقّوها، ليرحل كل واحد منهم إلى غرفة. اختارَ يوسف إحدى الكنبات التي تطل مباشرة على الفناء الخارجي ليجلس عليها مترقباً للحدث القادم.

دخلَ سعود المطبخ وراح يفكّر فيما همسَ به (يوسف) على مسامعه «لا تخفْ، ولا تجعل هذه الأمور تؤثّر في عقلكَ ومنطقك، سوف نُظهر الحقيقة قريباً، عندما تجد أي كيان يظهر أمامكَ أمسكْ به بكل ما أوتيتَ من قوة ثم اطلُب المجموعة، لنأتيَ إليكَ مُنجدين».

ترقُّب.. قلبٌ يدقّ كما لم يُدق من قبل.. آذان راصدة.. عيون متأهبة.. هدوء في بيئة صاخبة بفعل نسمات الطبيعة.. خرجَ الطفل الدامي من الغرفة راكضاً إلى غرفة أخرى ليجد خالد أمامه، لم يُمهل خالد نفسه للتفكير فقد تلقّفه حين ظهر أمامه من دون تردد.

زمجرَ الطفل بقوة، حاول أن يعضّ ساعديّ خالد، لكن كان الأخير يعتصره بين منكبيه منادياً المجموعة التي صار أفرادها أمامه في لمح البصر. (يوسف): «خيراً فعلتَ، أحكموا وثاقه واحملوه إلى دورة المياه». مازال الطفل ينطح ويعضّ أي قطعة لحم تمر أمام فمه مع الزمجرات الغاضبة.

وفي دورة المياه وضعوا الطفل في حوض الاستحمام، ثم أدار يوسف مقبض الماء الذي انهمرَ فوق الطفل وخالد الذي يحمله بين يده، ليقف الجميع في ذهول مقربين نور لهيب الشمعات من جسد الطفل!

«إنّه طفل حقيقي»، قالها (سعود)، تحولت زمجرات الطفل إلى بكاء يليق في طفولته، (الطفل): «أريد والدتي»، (يوسف): «لم يخِب ظني، مستحيل أن يكون الموضوع بهذه الدرجة من التجسد، أين والدتكَ؟»، انتظرَ الجميع لدقائق مليئة بالترقب أن يجيب الطفل وسط تساقط حبيبات الرمل من الساعة المقلوبة.

لم يُجب الطفل لكن بالمقابل أرعبهم بصرخة استنجاد، وبعدها ظهرَ عند باب دورة المياه كيان العباءة السوداء، رفعَ سالم قبضته وقبل أن ينزلها بكامل قوته على وجه (الكيان) نطقَ الأخير بصوت أنثوي: «أرجوكم اتركوا ولدي!».

انكشفَ المستور ونزلَ غطاء العباءة من فوق الرأس ليظهر نور من فلقة قمر، امرأة بيضاء ذات جمال لافت للنظر، تسلب القلوب بجاذبيتها، ساترة شعرها بشال قد غطى معظمه إلا من سواد خصلة قد نزلت على جبينها، عيون عسلية فاتحة يتراقص لهب الشمعات في قرنيَّتها، (سعود): «نترك لكِ الولد، بعد أن تعطينا الأمان من شرّك، أبشرٌ أنتِ أم ماذا؟»، (الفتاة): «أنا منكم، ولكم الأمان مني، وألتمس منكم الرحمة قبل المغفرة».

ظهرت خلف المرأة، الفتاة العرجاء ذات الدب القطني وهي تمسح دموعها عن وجنتيها السوداوين وتعصر في قبضتها طرف العباءة المسدولة على كتفيّ مُرافقتها، (خالد): «لنجلس في غرفة المعيشة ونسمعكِ، وبعد ذلك لكل حادث حديث، والحكم بعد الإنصات».

جلست المجموعة على الكنبات الموزعة وسط غرفة المعيشة،

مُثبّتين الشموع فوق قطرات ذائبة منها، والقنديل على طاولة بجانب المرأة والطفل والفتاة العرجاء. مسحت المرأة دموعها ثم أخذت طرف العباءة لتمسح دموع الفتاة العرجاء، ومن ثم نظرت إلى الوجوه الغاضبة التي تريد أن تسمع ما يرضيها قبل أن تنهش لحمها في أي لحظة. (المرأة): هذا ابني «علي»، وهذه ابنتي الكبرى «نور»، وأنا أختكم «أم علي»، (سعود): تشرفنا، اكشفي عن قدميكِ دون الساق، كشفت «أم علي» ليظهر الشكل الحقيقي لقدمها، ممّا أدخلَ الطمأنينة في قلوب المجموعة.

(سعود) بعينين تقذفان سهام الكُره: «ماذا تفعلين في ممتلكات أسرتي؟»، (أم علي): لن أختصر قصّتي، بل سوف أسردها على مسامعكم كما هي من دون زيادة أو نقصان، ممكن أن تنصت لما كابدته وتشفع لي وممكن أن تسلمني للسلطات وممكن أن تقتلني لكن أرجوك، ذريتي أمانة في رقابكم.

(يوسف): كلنا آذان صاغية، (أم علي): بدأتْ قصتي عندما كنتُ في المدرسة الابتدائية حين بدأ الوعي يُفرق بين تلقّي المعاملة الحسنة والسيئة، بعض الفتيات تتمّ معاملتهن معاملة طبيعية أما بعضهن الآخر فتتمّ معاملتهن باحتقار متعمّد وأنا من الفريق الآخر، ممّا جعلني ألجأ إلى والدي مراراً وتكراراً لطلب إصلاح الأمور في المدرسة، ومقابلة معلماتي ومديرة المدرسة لكي تتمّ معاملتي بشكل جيد كحال الفريق الأول. لكن كان ردّ والدي الذي لا يتغير هو الصمت مع الابتسام ثم المسح على رأسي وظهري، مع لمعان عينيه بفعل دموع متشبثة تأبى السقوط.

انتهت دراستي الابتدائية، وحانَ الوقت للانتقال إلى مدرسة الكِبار، وبكل شغف رحتُ أُخبر والديّ باحتياجاتي الدراسية - وإن كانت مستعملة - من ملبس وحقيبة وخلافه من دون أن أثقل كاهلهما بالمصاريف الكثيرة، حيث إنّ والدتي ربة منزل ووالدي يكسب القليل من المال حسب أعماله اليومية، وتنتهي اسرتي عند ذلك الحد لا أخوة ولا أخوات.

لكن الخبر الصادم عندما سمعتُ والديّ صدفة يتحدثان، (والدي): «لا أعلم كيف أخبرها أنّها محرومة من الدراسة»، قالت (والدتي) وهي تبكي بحرقة: «لا تُخبِرها، اترُكها بفرحها وخيالها الجامح في هذا الوقت على الأقل». لم أتمالك نفسي فدخلتُ إليهما معتذرة والدموع منهمرة على نحري: «ماذا تقولان؟، لماذا تمَّ حرماني من دراستي؟، ومن ذا الذي ظلمني بهذا القرار؟، أنت يا أبي؟، أرجوك راجع قرارك! لا أريد شيئاً، لا أحتاج ملابس جديدة ولا حقيبة مستعملة، سوف أحمل كتبي وأخيط ملابسي بنفسي، أرجوكَ يا أبي!».

لم يتحمل والدي هذا الكلام المؤلم الذي نطقَ به لساني مترجماً انقباض قلبي، خرج من المنزل من دون حتى أن ينظر إليّ نظرة مباشرة، تركَ الأمر لوالدتي التي نكّست رأسها لتُرتّب الكلمات التي سوف تزرعها في عقلي، لتكون في المستقبل شجرة متأصلة الجذور لا يمكن اقتلاعها إلا عند رحيلي من هذه الدنيا، فتنتهي معي.

(والدتي): «ابنتي العزيزة، قرار منعكِ من الدراسة لا يدَ لنا فيه، بل هو من الحكومة نفسها، من الدولة التي عشنا وتربينا فيها والتي

شهدت ولادتك على أرضها»، (المرأة): هدأتُ قليلاً لكي يفهم عقلي الصغير ويلتقط كمية الأفكار المسمومة التي تنخره: «ولماذا يتمّ منعي من قبل الحكومة؟»، سحبت (والدتي) كمية هواء وزفرته حاراً حارقاً من لهيب قلبها: «لأنّنا من فئة البدون»(12).

أردفت (والدتي) حديثها: هذا الاسم الذي حملناه على ظهورنا وما زلنا نحمله إلى أن تمت زخرفته ليظهر بصورة أرقى: «مجهولو الهوية»، أي أنّكِ يا حبيبتي غير كويتية، بل نحن بلا وطن ولا هوية ونعيش هنا بصفة غير قانونية حسب إفادة الحكومة، إلى أن تظهر المعجزة وتقبل إحدى الدول أن تحتوينا، والأغرب من هذا وذاك، هو أنّنا لا نرضى بغير الكويت وطناً، ونقدّم أعمارنا فداءً لترابه.

هنا طفَت جميع الذكريات المؤلمة في محيط عقلي، لترتبط جميع الخيوط ببعضها ويكتمل فهمي لسبب المعاملة السيئة التي كنتُ أتلقاها من البعض، لأنّني بنظرهم مسؤولة عن اختياراتي، وكأنّني قبلتُ أن أكون من فئة البدون، بل كأنّ لي الخيار في اختيار الزمان والمكان والعائلة التي يجب أن أُولد وسطها!

رضختُ.. وهل لديَّ خيار آخر غير ذلك؟، فكنتُ أُعينُ والدتي في أعمال المنزل والخياطة وذلك لكسب قوت اليوم، واحترمتُ والدي أكثر ممّا سبق عندما علمتُ بما يكابده من أجلي. وجرى الزمان آخذاً بيدي ليتقدم بي العمر بلا جديد يُذكر.

وعندما بلغتُ السادسة عشر من عمري ذهبتُ مع والدتي إلى منزل إحدى الثَريات التي تطلب فساتين بقياسات كبيرة بسبب

ضخامة جسدها، وأثناء تسجيل القياسات وبينما كانت والدتي تُملي عليّ الأرقام، والسيدة الثرية تشرح بكامل طاقتها وتنهيداتها شكل الفستان وكيف تريده أن يُبرز مفاتنها، مرّ أحدهم عند مدخل الباب مخاطباً السيدة صاحبة المنزل: «أمي.. هل تريدين شيئاً قبل أن أغادر؟»، فتلاقت أعيننا حينئذٍ، ويا ليت العمى أصابها قبل أن تلتقي!

من تلاقي العيون إلى تلاقي الأيدي إلى تسليم النفس، فتكوّنت نطفة ابنتي نور، وما زال وعد الزواج سارياً، كبُر بطني وأصبحَ لزاماً عليّ أن أهرب من منزلي حِفاظاً على ما في بطني، فآواني الشاب في شقة في منطقة السالمية.

كانَ يأتيني بين الفينة والأخرى ومعه المصروف الشهري واحتياجاتي، ومن ثم يلبي احتياجاته ويغادر. كانت ولادتي منزلية بطبيعة الحال، ولدتُ طفلة جديدة تحمل صفة والدتها وزادت عدد مجهولي الهوية، لأنّ النذل الخسيس رفضَ أن يتزوجني ويعترف بابنته.

وليس في اليد من حيلة غير أن استمرّ معه على هذا الوضع، فلا معيل لديّ غيره. استمرَّ هو بطبيعة الحال بالزيارة لسبب واحد وهو تلبية احتياجاته ومن ثم المغادرة، وكأنني قالب يفرغ فيه ما في جعبته ومن ثم يرحل إلى وقت غير معلوم.

وكانت النتيجة ولادة «علي» التي لا تختلف عن ولادة «نور»، ولادة منزلية بكل آلامها، لم يكلّف نفسه بطبيعة الحال بزيارتي إلا بعد مرور ٤٠ يوماً والسبب معروف. ضقتُ ذرعاً من الانتظار والوعود التي لا

أرى لها من نور،لا من قريب ولا من بعيد.

بعد أن أكمل علي عامه الأول ونحن في هذا السجن لا نخرج منه بسبب عدم وجود هوية لنا، قررتُ أن أشغل يومي بالقراءة وكنتُ أقرأ الكتب بنهم كبير، كل ما يقع في يدي أقرؤه، فتمكن حب الكتب في قلبي ونما إلى أن وصل إلى حد الإدمان. ثم وزّعتُ وقتي ومالي ما بين أبنائي وكُتبي.. لقد عادَ شغفي إلى العلم والتعلم، وإن كان العالم قد رفضَ تعليمي، فإنّ درب القراءة مليء بالكتب التي تنتظر مَن يحملها بين كفَّيه، وفيها من المعرفة ما يغنيكَ عن العالمين.

في يوم من الأيام وبينما كنتُ أتقلب بين برامج التواصل الاجتماعي، وقعت عيني على إعلان موجَّه إلى الجميع بصفة عامة وإلى البحَّارة بصفة خاصة، «سوف يكون هناك تدريبات عسكرية بالذخيرة الحية في المناطق البحرية وفي جزيرة فيلكا»، ومنها لمعت فكرة البحث والقراءة عن تاريخ هذه الجزيرة.

في نفس اليوم تلقيتُ مجموعة من الكتب التي تحكي عن تاريخها وآثارها اليونانية التي سبقت الميلاد، وكذلك الآثار العائدة إلى حقبة صدر الإسلام، وهناك بعض الروايات التي تحكي عن الجوانب المخفية منها، وإن كانت من خيال المؤلفين.. لكنّ منها ما حدث فعلاً، كالقصص التي كانت تُروى عن المدرسة وما وقع فيها من خوارق الميتافيزيقيا، وهناك قصص الأضرحة وما حدث فيها من عجب، فتركوا لنا حرية التصديق أو التكذيب.

ومن يومها كانت هناك فكرة تلمع في سمائي، وهي فكرة الهجرة

إلى جزيرة فيلكا بلا عودة لتكون لنا وطناً، فنعيش فيها وندفن فيها حين يُباغتنا الأجل.. توسّعتُ في البحث والتقصي عن هذه الجزيرة وصرتُ أعرف كل شبر فيها، إلى أن حان الوقت المعلوم.

كنتُ قد ادخرتُ بعض الأموال حتى بلغت نور عامها الخامس، بينما يصغرها علي بعام واحد، ثم حجزتُ تذاكر العبّارة التي سوف تحمل أسفارنا عبر جون الكويت إلى وطننا الجديد. خرجنا من منزلي من دون أن نودّع أحداً، تاركين خلفنا ذكريات مؤلمة وآلاماً محفورة في زوايا المنزل.

نزلنا إلى تراب فيلكا ثم ذهبنا لنرتاح في المنتجع لمدة يومين على أن أبحث عن المكان الذي سوف نعيش فيه ما تبقّى من العمر، لكن هذه المرة كانت مختلفة عن سابقتها، لأنّنا سوف نعيش مع الكرامة التي انتُهكت على مر السنين. كنتُ أستغل وقت نوم ولديّ فأذهب للبحث في الأحياء التي كنتُ أعلم بوجود أهلها الذين لم يهن عليهم أن ينسوا جذورهم في هذا الوطن، فهم يسكنون مدينة الكويت ويقضون صيفهم في الجزيرة، مع اهتمامهم الدائم ببيوتهم الصيفية.

وجدتُ ثلاثة بيوت قابلة للسكن، حيث إنّ أهلها يمرون عليها بين الفينة والأخرى، إلى أن وقع الاختيار على هذا المنزل، عندما يزوره أصحابه ننتقل إلى البيت الثاني ومنهُ إلى الثالث، حتى مغادرتهم فنرجع إلى هنا.

علّقتُ لافتة على أبوابها مؤخراً (ممتلكات خاصة يُرجى عدم الاقتراب)، وبذلك لن يقترب منها البحّارة الذين يبحثون عن مأوى

يُمضون فيه ليلتهم في البيوت المهجورة حتى الصباح، وقد حدث كثيراً أن وجدتهم منتشرين في أرجاء الجزيرة ينامون في بيوتها بين الفينة والأخرى، وهناك التدريبات العسكرية بالذخيرة الحية على بعض البيوت التي تضررت في حقبة الغزو، ممّا جعلنا نتحوّل إلى أشباح عند اقتراب الغرباء من هذا المنزل، ليسمعوا صوت الرعب، او أن يروا الكيانات التي كانت تخفي حقيقتنا، فيغادرون هذا الحي من دون رجعة.

من المال المدَّخر كنا نعيش، فمنه نشتري الأكل والماء والوقود الذي يُضيء ليلنا ونستخدمه للتكييف في الصيف، فكل منزل من هذه المنازل الثلاثة يحتوي على مولد خاص به. قسّمتُ يومي بين أعمال المنزل من تنظيف وتعليم ولديّ مستعينة بالكتب التي حملتُها معي، ومن ثم الرحيل إلى بقاع الجزيرة بحثاً عن الكنز.

قرأتُ فيما سبق بأنّ هناك أبحاثاً ما زالت جارية عن الآثار اليونانية، وبين الفينة والأخرى يتمّ اكتشاف قبر أو حفرة طُمِس في باطنها الغالي والثمين، فكنتُ في كل ليلة أخرج وأنا أحمل في يدي القنديل وفي اليد الأخرى جهاز كاشف المعادن، وأجوب الأماكن التي جرى فيها التنقيب سابقاً والأماكن المحيطة بها، لعلّي أجد ما سقط سهواً، أو أكون أول من اكتشفَ أثراً جديداً.

استمر بحثي ما يُقارب العامين تعلمتُ خلالهما المعنى الحقيقي للصبر، ولم أقنط من رحمة الله حيث إنّني على يقين بأنّ الله سوف يُعوّضني خيراً. في ليلة لا تعرف غير السكون والظلام الذي يُدخل الرهبة إلى القلب. تعالت أجراس جهاز كاشف المعادن لكن بنغمات

ضئيلة مكتومة، وتلك دلالة على أنّ المعدن ليس ببعيد، رصدتُ البقعة المطلوبة ويبدو أنّ المدفون أسفلها كان على عمق أربعة إلى خمسة أمتار حسب قراءات الجهاز.

رجعتُ إلى منزلي بعد أن وسمتُ المكان بعلامة دالّة عليه، على أن أُكمل العمل في الغد عندما تكون طاقتي في أوجها. في اليوم التالي غادرتُ المنزل والرفش مسنود إلى كتفي، ولساني رطب من ذكر الله، وصلتُ وابتدأتُ بالبسملة ثم شرعتُ بالحفر، كثبان التراب تكوّمت بجانبي وبدأتُ أنزل إلى قبري الذي توسطه جسدي.

رجعتُ في اليوم التالي لأكمل مسيرتي نحو الأسفل، وفي هذه المرة كان معي سُلّم لكيلا أقع في خطأ غيري، استناداً إلى ما قرأتُه في بعض القصص عن الذين حفروا حُفراً فغدت قبورهم فيما بعد بسبب عمق الحفرة التي لم يستطيعوا الخروج منها. المعرفة نور العقول الظلماء كما يقول الحكماء.

ما كنتُ أنتظره بفارغ الصبر قد حدث، لقد احتكّكَ الرفش بشيء ما سيكون بين يدي قريباً، إمَّا أن يُنير حياتي أو يُعيدني إلى متاهة الوهم. أكملتُ الحفر بيديّ العاريتين إلى أن ظهرت جرة من الفخار قديمة الهيئة لم يتقن صانعها تشكيلها، لُفّ أعلاها بقماش خشن، خرجتُ من الحفرة لأُزيل القماش وأنظر إلى ما يخفيه باطنها.

امتزجت دموعي مع ضحكاتي فوّلدت في وجهي هستيريا متناقضة، هناك من وضعَ داخلها عملاتٍ ذهبية وحُليَّاً معدنية... وبعضها مطليّ بالذهب، ثم دفنَها في باطن الأرض لتكون من نصيبي

بعد حين، بل هي الأقدار المكتوبة، الرحمات من الرزاق الكريم.

فيما بعد أخذتُ ولديّ وذهبنا إلى بقالة المنتجع التي نشتري منها احتياجاتنا الأسبوعية، والتي لطالما سألني صاحبها عن مكان إقامتي لكي يتقرب مني بحجة توصيل حاجاتي بمجرد الاتصال به، وحاولَ أن يعرف معلومات أكثر عن هويتي، لكنّه لم يحصل مني على حق ولا على باطل، فهذه خصوصيتي التي لا أقبل لأحد أن ينتهكها. انتهزتُ فرصة وجودي وسألته: «يا عمّ، هل تعلم أين يمكنني أن أبيع قطعاً أثرية تخصّ جزيرة فيلكا»، (صاحب البقالة): « هل تعود تلك القطع تاريخياً إلى ما قبل الميلاد أم إلى ما بعد الميلاد؟»، (أم علي): « إلى ما قبل»، اتسعت عينا (صاحب البقالة) ليقول بتودد: «هل لي أن أرى القطع التي تتكلمين عنها؟»، فتحتُ هاتفي الذي احتوى على صور العملات والحُلي في قلب الجرة.

(صاحب البقالة): «هل لي أن أعاين الآثار على أرض الواقع؟». (أم علي) توجّستُ شراً من طلبه: «شكراً لكَ يا عم وأرجو أن تنسى أنّني سألتكَ عن شيء». خرجتُ على مضض فتبعَني صاحب البقالة معتذراً، وطلب أن يقابلني بعد يومين لكي يعرض عليّ عرضاً لا يمكن مناقشته في الوقت الراهن.

عدتُ إلى منزلي بعد أن سلكتُ طريقاً مختلفاً لكيلا يلحق بي ويعلم أكثر ممّا يعلم، ذهبتُ في الموعد الذي حدده صاحب البقالة ومعي عملة ذهبية واحدة، وضعتُها بين يدي (صاحب البقالة) لينظر إليّ باستياء: «أين الباقي؟»، (أم علي): وما شأنكَ بالباقي، أنتَ تريد أن تتأكد، وها هو الدليل بين يديكَ. رفعَ صاحب البقالة هاتفه المتنقل

ليُجري المكالمة التي انتهت فيها معاناتي المادية وخوفي من انتهاء مدخراتي. أسبوع من الاجتماعات في قلب البقالة مع المشتري الذي عرضَ مبلغاً لم يتمكّن عقلي من استيعابه، قد يكفيني مع ولديّ وأحفادهما.

استلمتُ المبلغ في ثلاث حقائب وتمَّ تخزينها جميعاً في الجزيرة، ولم يتبقّ إلّا الشخص الموثوق، شخصٌ أبحث عنه ولم أجده بعد، أريد من خلاله أن أهاجر إلى بلد يقبلني بلا عودة. وهنا انتهت قصتي، وأرجو منكم المعذرة والغفران على إخافتكم، فإنّ خوفنا منكم أعظم.

ارتسمتْ علامات التأثر على وجوه الحاضرين، وهناك دمعة قد انزلقت من عين شعبان. (سالم): «أنا شخصكِ الموثوق، ولكِ مني أن أسعى لكِ في موضوع هجرتكِ، وضمان العيش الكريم لكِ ولولديكِ»، (يوسف): «وأنا ذراعكَ اليمنى يا سالم فيما تسعى إليه». تهلّلَ وجه أم علي التي سجدت لله شكراً؛ فَرُبَّ ضارةٍ نافعة.

(سعود): «هل تسمحين لنا باستخدام هاتفكِ المتنقل للتواصل مع صديق؟»، (أم علي): «بالتأكيد، تفضّل»، (سعود): «شكراً لكِ». اتصل سعود بصديقه طالباً إرسال قارب ينقلهم إلى الكويت من دون أن يتواصل مع خفر السواحل أو مع جهة حكومية، لكيلا تحدث بلبلة إعلامية ليس لها أي داعٍ، يتكسّبون بها من خلال معاناتنا وما حصلَ معنا وسط ظلّ كيان إيكاروس!

(11) جزيرة فيلكا: تبعد ما يقارب 20 كيلومتراً عن الساحل الكويتي، كانت محطة تجارية على الطريق البحري للحضارات المنتشرة على ساحل الخليج العربي، في عصر الإسلام كانت مركزاً دينياً ومتحفاً للآثار الإسلامية التي تم استخراجها وعرضها في متاحف الكويت، وأيضا الآثار الإغريقية والتي ترجع إلى عصور ما قبل الميلاد عندما كان اسم الجزيرة إيكاروس تيمناً بجزيرة إيكاروس الإغريقية الأصلية في بحر إيجة، وبقيت مأهولة بالسكان حتى عام 1990م. في الوقت الحالي تضم منتجعات صيفية وميناءً صغيراً للبحارة.

(12) مجهولو الهوية: وهناك تسمية ثالثة وهي (غير محدّدي الجنسية)، فقد تخطى عددهم 200 ألف نسمة في دولة الكويت، وبغض النظر في حال فقدانهم الهوية، فإنّ لهم الحق في الزواج والإنجاب والتعليم والعلاج، لكنّ ما يتم التعامل معه في الإجراءات الحكومية خلاف ذلك، فحقوقهم مسلوبة إلّا من التحق منهم بسلك قوى الشرطة والجيش، ومن رحم ربي!

الخاتمة

لم يطُل الأمر أكثر من ساعتين، ليستقبل هاتف أم علي مكالمة من السائق الذي وصل إلى مشارف جزيرة فيلكا منتظراً المجموعة على ساحلها، ودّعنا أم علي التي مازالت تعتذر عمّا بدر منها، وضعت في جعبتنا الزاد والماء ثم ودّعتنا ورحلت مختفية تحت ستار الظِلال، سرنا إلى قارب صديقنا متنفسين الصعداء لانتهاء هذا اليوم على خير.

(السائق): «أهلاً وسهلاً بكم، سوف نصل إلى الكويت إن شاء الله، وتحديداً إلى ميناء السالمية حسب إرشادات مالك القارب، لكن يجب أن أستلم بضاعة على مقربة من هنا، ثم نرحل إلى وجهتنا».. لا نملك الرفض وكما يقول المثل، «يا غريب... كُن أديب»، رغم التعب الظاهر على المحيا.

وبينما نحن في طريقنا عكس اتجاه المدينة، وبعد مرور ساعة من الوقت على رحيلنا من جزيرة فيلكا، توقف السائق وسط البحر ليظهر قارب أكبر في الحجم متجه بكامل السرعة نحو قاربنا. توقّف ذلك القارب بجانبنا ثم همّ السائق بإخراج المال الذي وضعه في المخزن أسفل كبينة القيادة، لكنّ ما حدث أدخل الجميع في صدمة.

أخرجَ أحد رجال طاقم القارب الثاني كلاشنكوف ليُسنده على كتفه ويسحب قابض إدخال الرصاصة الأولى إلى منصة الانطلاق قائلاً: ضعوا أيديكم فوق رؤوسكم وأنزلوا على ركبكم.

امتثلنا إلى طلبه، فالتصقَ القاربان، وكبّلوا أيدينا وأقدامنا ثم

قادونا إلى دولة إيران، وها نحن الآن في سجون إيران نرسل قصتنا إلى مَن يجد لنا حلّاً ويخرجنا من هذه الورطة التي وقعنا فيها مرغمين.. العقوبة: سجن لمدة ٢٥ عاماً للاتجار بالمخدرات، والمذنب الوحيد في الجريمة هو السائق الخائن، ولم يكن لنا طلب إلا أن نخرج من بين ثنايا الرهبة.

«سعود عبد العزيز»

تمت في

٢٣/٠٥/٢٠٢٣